مالك بن نبي

ميلاد مجتمع

الجزء الأول

شبكة العلاقات الاجتماعية

ترجمة
عبد الصبور شاهين

إصدار
ندوة مالك بن نبي

المراجعة بشأنها :

المحامي عمر مسقاوي

طرابلس ـ لبنان ـ شارع البولفار

بناية الاوقاف الاسلامية

تلفون : ٦٢٠١٦٥ مكتب

٦٢٥٤٠٨ منزل

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا الكتـــاب ...

تصدره ((ندوة مالك بن نبي)) .

وهو الكتاب الاول تصدره هذه الندوة .

وهو الكتاب الاول يصدر منذ اثنتي عشر عاما حين ظهرت طبعته الاولى عـــام ١٩٦٢ ..

ففي عـام ١٩٧١ تـرك استاذنا مالك بن نبي رحمـه الله في المحـكمة الشرعية في طرابلس لبنان وصية تسجلت تحت رقم ٦٧/٢٧٥ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٩١ الموافق ١٠ حزيران ١٩٧١ ، وقد حملني فيها مسؤولية كتبـه المعنوية والمادية .

وتحملا مني لهذه الرسالة ، ووفاء لندوات سقتنا على ظمأ صافي الرؤية، رأيت تسمية ما يصدر تنفيذا لوصية المؤلف ب ((ندوة مالك بن نبي)) .

والتسمية هذه دعوة الى اصدقاء مالك بن نبي وقارئيه ليواصلوا نهجا في دراسة المشكلات كان قد بدأه .

وهي مشروع نطرحه كنواة لعلاقات فكرية كان يرغب رحمه الله في توثيقها.

و ((ميلاد مجتمع)) هو الجزء الاول من دراسة لم يتمها المؤلف . لكنـه يستقل في بحث متكامل عن ((شبكة العلاقات الاجتماعية)) .

والكتاب نظرة تحليلية لمكونات المجتمع . نصدره اليوم كبداية لطبع كتبه من جديد بعد ان ترك لنا تعديلات في بعضها . ولسوف تأخذ طريقها باذن الله تباعا الى القاريء باسم ندوة مالك بن نبي .

عمـر مسقاوي

طرابلس ـ لبنان

٢١ ربيع الثاني ١٣٩٤

الموافق ١٣ ايار ١٩٧٤

تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



طبع بالأوفست في **دار الفكر** هاتف (٢١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب (٩٦٢) دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

مقدّمة

هذه الدراسة جزء من العمل الذي نقوم بنشره تحت العنوان العام : **« ميلاد مجتمع »** .

ولكن لها بالنسبة الى هذا العمل صفة خاصة ، حبذت لدينا نشرها منفصلة تحت عنوان فرعي هو : **« شبكة العلاقات الاجتماعية »** .

وهي تشمل في الواقع بمقتضى هذا العنوان ، وبصورة منهجية، المفاهيم النظرية التي ترجع اليها العناصر التاريخية الخاصة بـ « ميلاد مجتمع »

وقد بدا لنا من الضروري ان نفسر اولا هذه الظاهرة بوجه عام ، قبل أن نعرضها بالنسبة للمجتمع الاسلامي بوجه خاص .

وهذا يسمح لنا أن نحدد في هذه الدراسة ، شأن ما يحدث في مدخل أية دراسة ، المصطلحات المستخدمة ، وبخاصة مفهوم لفظة «مجتمع » ذاتها . ونعتقد أننا بهذا قد استجبنا لرغبة القاريء العربي والمسلم ، في الوقت الذي يحاول فيه أن يدخل الى مسرح التاريخ ، بعد أن تخطى أزمة تاريخه الكبرى، الازمة التي نعرفها ، والتي تتجلى في سباته المتطاول خلال القرون الاخيرة . فهو يحاول ان يؤدي نشاطه المشترك من جديد كما سبق ان فعل يوم كان ممسكا بمشعل الحضارة .

اننا نريد أن نعطي للقاريء العربي والمسلم فرصة التأمل في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع ، حين يولد ، او حين ينهض ، وذلك بأن نريه ان النهضة الحقة تقع في ظاهرة اجتماعية عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور :

« لا يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به أولها » .

القاهرة في ١١ من ابريل ١٩٦٢

م. ب. ن



أوليّـاتُ

لم تبلغ العلوم الانسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها بصفة عامة ، كما حدث للعلوم الطبيعية • فأن في علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدو أحيانا غير محددة في ذهن القاريء في البلاد الاسلامية ، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تماما المصطلحات الحديثة •

ولقد يؤدي تعقد المصطلحات الى مناقشات أقرب الى الطابع الادبي منها الى منطق العلم ، كتلك المناقشة التي ثارت وتثور غالبا حول مصطلحي حضارة ، ومدنية ــ في البلاد العربية ــ • بيد ان هذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع ، بل تجعله اكثر صعوبة •

فمن المفيد اذن أن ننشيء أولا الاطار النظري لموضوعنا **(ميلاد مجتمع)** قبل أن نعالجه من زاويته التاريخية • وهكذا نجد من المناسب أن نذكر في مستهل دراستنا تنوع الظواهر الاجتماعية التي تنطبق عليها لفظة مجتمع فنذكر أولا الفرق الجوهري بين **((المجتمع الطبيعي))** او البدائي ، وهو الذي لم يعدل ، بطريقة محسة ، المعالم التي تجدد شخصيته منذ كان ، وبين المجتمع التاريخي الذي ولد في ظروف اولية معينة ، ولكنه عدل ، من بعد ، صفاته الجذرية ابتداء من هذه الحالة الاولية ، طبقا لقانون تطوره •

والنوع الاول يحقق نموذج المجتمع الساكن ، ذي المعالم الثابتة ، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل او النحل • والقبيلة الافريقية في عصر ما قبل الاستعمار ، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي تمثلان هذا النموذج •

اما النوع الثاني فانه يحقق النموذج المتحرك ، أعني المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير ، الذي يعدل معالمه من جذورها •

ومع ذلك فهذا النوع ليس وحيد الصورة ، فهو يتنوع من حيث طريقة نشأته ، ومن حيث شكل بنائه •

والواقع أن المجتمع التاريخي يمكن أن ينشأ بطريقتين :

فهو اما ان يتركب ابتداء من مواد جديدة، أي من مواد لم تتعرض لاي تغيير تاريخي سابق، فهو يستنفذ هذه المواد، في الحالة الّتي تكون عليها في الطبيعة ، وبهذه الطريقة نشأت المجتمعات التاريخية الاولى ، ابان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد •

ولكن هذا النوع قد يتكون ايضا من عناصر استخدمت في مجتمع تاريخي سابق ، تحولت عناصره المكونة له ، بسبب تقادمه او انبساط رقعته، الى عناصر مهيأة للاستخدام في مجتمع جديد •

وقد تكون الاستعارة في صورة هجرة تنزع هذه العناصر من المجتمع الام ، كالهجرة التي كونت المجتمع الامريكي الحالي ، وهو المجتمع الذي تكون من عناصر قدمها له مجتمع متحضر في حالة توسعه ــ هو المجتمع الاوروبي في القرن السادس عشر ــ وكالهجرة التي كونت مجتمع الاسكيمو الذي انتزعت عناصره المكونة له من المجتمعات المغولية الصينية في الشرق الاقصى •

ولقد تكون الاستعارة في صورة اخرى عندما تكون الحالة اعادة تركيب انقاض مجتمع أو مجتمعات اختفت ، ومن امثلة ذلك أن المجتمع الروماني امتص في سبيل بنائه كثيرا من المجتمعات التي اختفت ، مثل المجتمع الغالي بعد معركة أليزيا **Alésia** والمجتمع القرطاجني **Carthaginoise** بعد معركة زاما ، والمجتمع المصري بعد انتصار القيصر علي يومي •• الخ ؟

بيد أنه مهما تكن طريقة البناء فأن ظهور مجتمع تاريخي ليس حدثا عرضيا ، بل هو نتيجة عملية تغيير مطردة يشترك فيها المجتمع الذي يستعير ،

والاخر الذي يقدم العارية • هذه العملية تتم طبقا لتخطيط نظـري عـــام يشتمل بالضرورة على الجوانب الاتية :

أولا : المصدر التاريخي لعملية التغيير المطردة •

ثانيا : المواد التي تمر بتأثير هذا التغيير من حالتها قبل الاجتماعية ـ بحيث يمكن ان تحوزها اليد المغيرة ـ الى حالتها الاجتماعية الجديدة •

ثالثا : القواعد العامة او القوانين التي تتحكم في هذا التغيير •

فمن الزاوية الاولى نجد أن النموذج التاريخي من المجتمعات يتعرض أيضا للتنوع الناشيء عن الظرف التاريخي الذي يتيح له ميلاده • وهنـــاك من هذه الزاوية نوعان من المجتمع :

أ ـ المجتمع التاريخي الذي يولد ، فيكون ميلاده اجابة عن اختيار مفروض تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيـــه ، سواء تعرض هذا الوسط لتنوع مفاجيء ، أم أن العناصر المكونة له قد واجهت فجـــأة ظروف وسط طبيعي جديد :

وهذا هو النموذج الجغرافي•

ب ـ المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لنداء فكرة :

وهذا هو النموذج الفكري « الايديولوجي » •

وينتمي المجتمع الامريكي الى النوع الاول ، اذ هو ثمـــــرة هجرة اوروبية ، اضطرت الى ان تتكيف مع الظروف الطبيعية في القارة الجديدة• ولقد عرضت على الشاشة قصة الاختبار الذي منح هذا المجتمع ميلاده ، في صورة افلام تناولت موضوعاتها حياة الناس في أقصى الغرب الامريكـــي

(For-West) وفي شخص البطل بوفالوبيل • تلك الافلام التي غذت خيال الجيل السابق في اوروبا ، والهمته أن يختار ملابس رعاة البقر ، زيا رسميا لحركات الكشافـــة •

اما النموذج الثاني فاليه ينتمي المجتمع الاسلامي ، كما ينتمي اليه المجتمع الاوروبي الاصلي ، وهو الذي يعد بصورة عامة ثمره للفكرة المسيحية .

ويمكن أن نعتبر المجتمع السوفييتي اليوم والمجتمع الصيني من هذا النوع .

وفضلا عن هذا التنوع ذي الطابع التاريخي المتصل بمنشأ المجتمع ، فأن من الواجب ان نلاحظ ايضا وجود تنوع ذي طابع تشكيلي يتصل ببناء المجتمع .

وينبغي من هذه الوجهة أن نميز المجتمعات التي يقوم بناؤها على طوابق كثيرة ، عن المجتمعات ذات الحجر الواحد أو الطابق الواحد .
والمجتمع الاسلامي ــ الذي يعد بخاصة موضوع دراستنا ــ هو من النموذج ذي الحجر الواحد ، أعني ان بناءه قد اتخذ صورة واحدة تتفق كثيرا أو قليلا مع الحديث المشهور :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وهو الحديث الذي يعطي الصورة الدقيقة التي كان عليها المجتمع الاسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا التحديد الذي نضعه للمجتمع الاسلامي لا علاقة له بالحركة المذهبية التي قسمته خلال التاريخ الى مدارس او طوائف . فهو تحديد مجتمع ديمقراطي يحتفظ في اتجاهاته ، ان لم يكن في مؤسساته ، بجوهر الديمقراطية ، أعني انه كان مجتمعا بلا طبقات .

والتجربة الراهنة في الجمهورية العربية المتحدة هي في الواقع محاولة لاعادة التعبير عن هذا الجوهر في صورة حديثة .

أما المجتمع البرهمي ، فهو على العكس من ذلك ــ نموذج للمجتمع المبني على طوابق ، المجتمع المنقسم الى طوائف متراكبة ، حتى في داخل

البناء الاجتماعي في الهند الحديثة ، على الرغم من جهود غاندي •

والمجتمع الاوروبي في القرن التاسع عشر يقدم لنـــا مثالا اخـــر للتراكب الاجتماعي بين الطبقات المختلفة التي كـــان يتألف منها •

فهذه اذن طائفة من الامثلة على التنوع التاريخي أو التشكيلي فـــي المجتمع الذي ندرسه • بيد أن في هذه الامثلة جميعا عددا من الخصائص المشتركة • فالمجتمع ــ أيا كان نموذجه التاريخي أو التشكيلي ــ ليـــس مجرد جمع لعناصر ، او اشخاص ، تدعوهم غريزة الجماعة الى ان يتكتلوا في اطار اجتماعي معين •

هـــذه الغريزة وسيلة لانشاء المجتمـــع ، وليست سببا في انشـــائه ، اذ يضم المجتمع ما هو اكثر من مجرد مجموعة من الافراد الذيـــن يؤلفون صورته ، يضم عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامه ، وبتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن افـــراده •

ويمكن ان نفصل الامر بطريقتين :

أ ــ فقد يحدث في بعض الظروف التاريخية ان يفقد مجتمـــــع ما شخصيته ويمحى من التاريخ • ومع ذلك فأن عدد افراده قد لا يتغير فـــي هذه الحالة ، بل ويحتفظ كل فرد بغريزة العيش في جماعة ، وهـــي الغريزة التي تحدد معالم الانسان ككائن اجتماعي ، وانما اصبح الافراد مجرد انقاض لمجتمع بائد ، أنقاض مهيأة لان تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد •

ففي اعقاب معركة أليزيا Alésia اختفى المجتمع الغالي ، ولكن الغـــال كأفراد لم يختفوا ، بل تحولوا الى مواد مهيأة للدخول في بناء جسد اجتماعي اخر ، هو المجتمع الروماني •

ب ــ فاذا حدث ان اختفى الافراد الذين يكونون مجتمعا ما في نهاية جيل معين ، فان المجتمع يبقى ، ويحتفظ بشخصية لا يمسها شيء ، كمـــا يحتفظ بدوره في التاريخ •

بل انه يفرض على القادمين الجدد انفسهم ـ حتى ولو كانوا اجانب ـ عبقريته ، وتقاليده ، وعاداته ، وقد رأينا ذلك عندماابتلع المجتمع الصيني قبائل المانشو والمغول ، حين غزوا مملكة الصين •

فالمجتمع يحمل اذن في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ •

وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي ، اذ هو الذي يحدد عمر المجتمع ، واستقراره عبر الزمن ، ويتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا •

وهو الذي يتجسد ـ في نهاية الامر ـ في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط افراد المجتمع فيما بينهم ، وتوجه الوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة ، هي رسالة المجتمع الخاصة به •

فتكوّن هذه الشبكة ، ولو في مرحلة ابتدائية ، هو الذي يعبر عن حدث « ميلاد مجتمع » في التاريخ •

النوع والمجتمع

حاولنا فيما سبق ان نحدد معنى المصطلح « **مجتمع** » ، على الاقل من الوجهة التاريخية ، التي تشمل اصول الكيان الاجتماعي ومن الـوجهة التشكيلية التي تتصل ببنائه •

ونريد هنا ان نحدد الامر من الوجهة الوظيفية ، ولعل من نافلة القول ان نذكر ان مصطلح « مجتمع » في معناه البسيط ــ المعنى الادبي الذي يعطيه القاموس ــ يعني: **تجمع افراد ذوي عادات متحدة ، ويعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة** •

وهذا تحديد خارجي وصفي ، لا يعطى ادنى تفسير « للوظيفة » التاريخية التي تناط بتجمع من هذا القبيل ، كما انه لا يفسر تنظيمه الداخلي، الذي قد يكون كفئا لاداء مثل هذه الوظيفة •

فمن الضروري اذن ان نزيد في تحديد نطاق موضوعنا •

ولذا ينبغي ان نستبدل بالتحديد الوصفي المقدم في الفصل السابق تحديدا جدليا ، وبعبارة اخرى :**ينبغي ان نحدد « المجتمع » في نطاق « الزمن »** •

فتجمعات الافراد الذين لا يعدل الزمن من علاقاتهم الداخلية ، ولا تتغير اشكال نشاطهم خلال المدة ، لا تعد من التجمعات الخاصة التي نقصدها بمصطلح « مجتمع » •

والجماعات الانسانية المقصودة ــ منذ ليفي بريل ــ بعبارة « المجتمعات البدائية » التي لا تتغير صورة حياتها كما لا تتغير مستعمرات النمل خلال الاف السنين ــ هذه الجماعات خارجة عن نطاق التحديد •

فحياة هذه الجماعات الانسانية تصور لنا حتى الآن مرحلة مــرت بها الانسانيـــة في عصور ما قبل التاريخ .

وفي هذه المرحلة تتحجر الصفات الاجتماعية ، ويندر تنوعها من عصــر لآخر ، ولو اخذنا قطاعين من حياتها الاجتماعية يفصل بينهما الاف السنين لوجدناهما متطابقين ، على ما لاحظه المختصون في « علم الاجناس » الــذين يدرسون اليوم الحياة الانسانية في بعض اقطار افريقيا الاستوائية .

وحيث ان كل تغيير يطرأ على الخصائص التشكيلية او يحدث فــي التوجيه الثقافي لجماعة انسانية معينة هو نتيجة مباشرة لوظيفتها التاريخية **فان كل جماعة لا تتطور ، ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن ، تخرج بذلــك من التحديد الجدلي لكلمة « مجتمع »** .

وفضلا عن ذلك فان الجماعات التي ما زالت في هذه المرحلة الاولــى من التطور تتجه بدورها الى الاندماج في « المجتمع العالمي » الذي يتكــون في هذه الايام بفعل العوامل الفنية ، تلك التي تدخل في ثقافة القرن العشرين مفهوم « العالمية » .

وايا كــان الامر **« فالمجتمع »** هو الجماعة الانسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن ان نطلق عليها مصطلح **« ميــلاد »** .

ولكن حين نتحدث عن « ميلاد » معين ، فانا نعرفه ضمنا « كحــدث» يسجل ظهور شكل من اشكال الحياة المشتركة . كما يسجل نقطة انطــلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة .

ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين افراد جمــاعة معينـــة .

ومع ذلك فان هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحد يمثل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد ، وذلك بلا شك هو المعنى المقصود من كلمة « أمــة » عندما يطلقها القرآن الكريم على ابراهيم عليـــم السلام

في قوله : « ان ابراهيم كان أمة » ففي هذه الحالة نجد ان المجتمع «الامة» يتلخص في « انسان واحد » اي انه يتلخص في مجرد احتمال حدوث تغيير في المستقبل ، مازال في حيز القوة ، تحمله فكرة يمثلها هذا « الانسان » •

فلكي نعطي لموضوعنا تعريفا منطقيا ينبغي ان نربطه بمعامل الزمن ، بحيث نحدد لهذا المعامل دلالته النفسية والاجتماعية • ومن هذا الوجه يصبح المجتمع هو : **الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بانتاج وسائل التغيير ، مع علمها بالهدف الذي تسعى اليه من وراء هذا التغيير •**

ومن الحقائق المقررة في علم الكيمياء منذ درس العلماء المركبات المتشابهة الجوهر Isoméres ان الاجسام قد تتماثل في التركيب الكيميائي دون ان تتشابه خصائصها • واستنبط العلماء من هذا ان مجموعة الذرات ليست مجرد كمية من المادة ، بل هي تنظيم هذه المادة طبقا لنظام معين ، فاختلاف الخصائص في الكيمياء انما يرجع في الحقيقة الى اختلاف التنظيم الداخلي ، او بتعبير اوضح اختلاف الهندسة الداخلية •

والامر كذلك بالنسبة للمجتمع ، **فهو ليس مجرد مجموعة من الافراد ، بل هو تنظيم معين ذو طابع انساني يتم طبقا لنظام معين •**

وهذا النظام في خطوطه العريضة يقوم بناء على ما تقدم على عناصر ثلاثة :

«١» حركة يتسم بها المجموع الانساني •

«٢» وانتاج لاسباب هذه الحركة •

«٣» وتحديد لاتجاهها •

فهذه هي العوامل الثلاثة التي يدين لها مجموع انساني معين بخصائصه الاجتماعية التي تحيله « مجتمعا » بالمعنى المنطقي للكلمة •

والواقع ان فكرة الحركة ، تلك التي تتطابق مع مفهوم التغير والتطور ، تعتبر عنصرا جوهريا في التعريف في علم الاجتماع •

وهذه الفكرة نفسها قد ساعدتنا في دراسة اخرى على التفرقة بين فكرة « رأس المال » وفكرة « الثروة » ، اذ كان المصطلح الاول يعني المال المتحرك، وكان الثاني يعني المال الساكن •

وفكرة الحركة ستساعدنا هنا على التفرقة بين « المجتمع » وبين سائر اشكال الجماعات الانسانية التي لا تتصف بما سبق ان اشرنا اليه من خصائص اجتمـــاعية •

ومع ذلك فـــان الحركة في علم الاجتماع تستتبع فكرة ذات قيمتين : **فان تطور الجماعة يؤدي بها اما الى شكل راق من اشكال الحياة الاجتماعية ، واما ان يسوقها على عكس ذلك الى وضع متخلف •**

وعلى اية حال فان امام كل مجتمع غاية ، فهو يندفع في تقدمه اما الى الحضارة ، واما الى الانهيار •

وفي مقابل ذلك نجد انه حينما تنعدم الحركة . فان الجماعة الانسانية تفقد تاريخها : اذ تصبح •• ولا غاية لها •

فهذا هو في نهاية الامر المقياس الاساسي الذي يساعدنا على ان نواجه مشكلة ميلاد مجتمع معين : **تكسب الجماعة الانسانية صفة « المجتمع » عندما تشرع في الحركة ، اي عندما تبدأ في تغيير نفسها من اجل الوصول الى غايتها • وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة •**

اما الجماعات الساكنة فان لها حياة اجتماعية دون غاية فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضـــارة •

وخلاصة القول : **ان الطبيعـــة توجد النـــوع ، ولكن التاريخ يصنـــع المجتمع • وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء ، بينما غاية التاريخ ان يسير بركب التقدم نحو شكل من اشكال الحياة الراقية ، هو ما نطلق عليـــه اسم الحضـــارة •**

الآراء المختلفة في تفسير الحركة التاريخية

هذه الاعتبارات التي اشرنا اليها في الفصل السابق تربط فكرة « المجتمع » بوضع متحرك ذي عناصر ثلاثة :

(أ) حركة مستمرة .

(ب) انتاج دائم لاسبابها .

(جـ) غايتها .

لكن هذا التخطيط يحبسنا داخل الحلقة المفرغة، حلقة البيضة والدجاجة، عندما نريد ان نلهو بتحديد اي منهما كان سببا في وجود الاخر .

فاذا ما ذهبنا الى ان « الحركة هي التي تؤدي الى اسبابها » وجدنا انفسنا امام تعارض ظاهر فان تخطيطنا الحركي يعطينا صورة عن المجتمع في حركته ولكنه لا يفسر الشروط الاولية لهذه الحركة .

واي وسط « انساني » ينطوي في الحقيقة على نصيب من الخمود ، شأنه في ذلك شأن اي وسط من المادة ، ونحن ندل على هذا الخمود في جانب الافراد بصيغ مختلفة : فنتحدث احيانا عن الكسل وعن نقص الطاقة ، وعن نقص الارادة .. الخ .. كما اننا ندل عليه في الجانب الجماعي حين نتحدث عن الركود او الكساد والتخلف .. الخ.

ومعنى هذا ان كل وسط انساني مندمج في حركته ، منتج لاسباب هذه الحركة، ينطوي على عامل اساسي يقهر الخمود الفطري ــ طبقا لمبدأ الميكانيكا الكلاسيكي ــ حين يحيل عناصر الخمود في وسط معين الى قيم حركية.

لقد فسر كثيرون هذه الظاهرة بصور مختلفة.

فهيجل يرجع الاسباب التي تحكم كل حركة تاريخية ، اعني كل تغيير اجتماعي الى مبدأ التعارض الذي يتكون من قضية ونقيضها .

فحينما تنشأ الحركة طبقا لهذه الاسباب المتعارضة ، فان غايتها تتمثل امامه في صورة اندماج وتركيب محتوم !

فهذه هي الاحوال الثلاثة التي تسيطر على كل حركة تاريخية في رأي هيجل ، وبالتالي يتلخص فيها كل تغيير اجتماعي .

فالحالة التي توجد فيها جماعة انسانية في لحظة معينة من تاريخها هي — في رأيه — قضية .

ولكن قد تظهر خلال هذه الحركة اسباب ، ذات طابع اقتصادي او اخلاقي او مناخي تهدف الى تعديل اتجاهها . فبتأثير الافعال وردود الافعال المتبادلة يصبح الوسط مجالا لنزعات السكون المتصلة بخموده الفطري ، ونزعات الحركة التي تنشيء حالة مناقضة في طريقها الى الظهور يتكون عنها نقيض القضية .

وفكرة التعارض هذه هي التي تكون في نظر هيجل القوة المحركة التي تخلق الحركة التاريخية ، التي من شأنها ان تخلق اسبابها .

والاندماج او التركيب هو الغاية المنشودة من هذا الكيان كله ، ذلك الكيان الذي يجدد دورته كلما نشأ تعارض جديد يزلزل التعادل القائم المستقر .

ويعتبر تفسير فكرة التعارض هذه هو الميدان الذي اختلفت فيه المذاهب الفكرية الحديثة .

فالفكرة الماركسية ترى ان الاسباب المتعارضة التي تؤدي الى حدوث التغييرات الاجتماعية ذات طابع اقتصادي : فميلاد المجتمع وشكل الحضارة الذي يتخذه ناشئان عن التعارض الاقتصادي .

ومع ذلك فلو اننا طبقنا على هذه الفكرة مقياسها الاقتصادي الخاص، فستبرز امام اعيننا حدود امتدادها على الخريطة الاقتصادية للعالم • فان تأملنا امتداد الفكرة الماركسية باعتبارها ظاهرة اقتصادية يدلنا على انها ترسم منطقة اقتصادية يقع متوسط دخل الفرد السنوي فيها تقريبا بين مائتي دولار وسبعمائة دولار ، وهو المستوى الذي وصلت اليه اليابان من ناحية. وانجلترا من ناحية اخرى •

وبذلك نستطيع ان نقرر ـ الى ان يثبت العكس ـ ان انتشار الفكرة الشيوعية محدود داخل هذه الحدود الاقتصادية المطابقة لحدود جغرافية معينة ، وان التفكير الماركسي لم يجد وراء هذه الحدود المزدوجة ظروف تأقلمه ، فهو بهذه الصورة لا يستطيع ان يقدم لنا تفسيرا معقولا للمجالات التي لم ينتشر فيها على الخريطة •

بيد ان هذه الملاحظة ذاتها تؤدي بنا ضمنا الى نظرية « جون ارنولد تويمبي » تلك التي تحدد بدقة مشكلة الحدود التي يمكن ان يتم فيها تغيير اجتماعي معين ، وهي بذلك تفسر لنا : لماذا كان مجال انتشار الفكرة الماركسية على خريطة العالم الاقتصادية واقعا داخل حدود معينة ؟ !

لقد اتبع المؤرخ الانجليزي الكبير منهجا ينطبق في جانب منه على تخطيط هيجل وذلك حين شبه فكرة التعارض بعقبة ذات طابع اقتصادي او فني عبر عنها بكلمة « تحدي » •

وفي رأيه ان التحدي يتوجه الى ضمير الفرد او الجماعة ، وتكون مواجهته له بالقدر الذي تكون عليه اهمية الاستفزاز وخطورته ، فهناك تناسب بين طبيعة الاستفزاز وبين الموقف الذي يتخذه الضمير في مواجهته •

وعلى هذا فلو افترضنا ان التحدي كان ضعيفا بحيث لم يصل الى مستوى معين ، فان « الاجابة » عليه ستكون هي ايضا ضعيفة ، وبعبارة اخرى ، لا لزوم لهذه « الاجابة » ، وبذلك يفقد التحدي معناه كعامل في احداث التغيير الاجتماعي•

فهناك اذن حد يبدأ منه ما اطلق عليه توينبي (التحدي المناسب) الذي يستلزم نشوء (اجابة) كافية لتحريك اسباب التغيير •

ثم ان فاعلية الاجابة تنمو متناسبة مع قيمة التحدي ، حتى يصل الى حد معين ، فان استمر في نموه فانه يصبح منعدم التأثير ، لانه ينصب امام الضمير استحالة ليس في طوقه ان يحلها • فالاجابة في مثل هذه الحال تصبح عديمة الجدوى •

وهكذا يضع توينبي التغيير الاجتماعي بين حدين ، لا يتم خارج نطاقهما ، وذلك في حالة شبيهة بالتفريط تنشأ من نقص في التحدي ، او شبيهة بالافراط تنشأ عن زيادته على قدر معين •

وبهذه الطريقة يفسر المؤرخ الانجليزي الكبير اهم المراحل في التاريخ الانساني ، فهو يذهب الى ان العلة في بقاء بعض الجماعات الانسانية في حالة راكدة لا تكون « مجتمعا » بالمعنى المقصود من هذه الكلمة لا تخرج عن احد احتمالين : فاما ان التحدي لم يكن كافيا لدفع طاقتها الى اجابته ، واما ان هذه الجماعات قد عمدت الى الفرار من طريقه ، ثم انه يسوق لنا امثلة على ذلك حين يحدثنا عن الشعوب التي هاجرت الى اعالي النيل ابان العصر الحجري الجديد ، فلم تستطع ان تحدث تغييرا ذا بال في شرائط حياتها منذ ذلك الحين ، لانها قد عمدت الى الفرار من قسوة التحدي ، اما اخوانهم الذين كانوا يعيشون في الوادي المنخفض فقد آثروا مواجهة التحدي ، الذي واجهتهم به الطبيعة والمناخ فغيروا بذلك شرائط حياتهم تغييرا تاما ، ونجحوا في اقامة اول مجتمع متحضر شهده التاريخ •

كذلك يورد المؤرخ الانجليزي حالة الاسكيمو ، الذين يعدون اليوم نموذجا للجماعة الانسانية التي لا تغير شرائط وجودها لان تحدي الطبيعة لها ، وقد أربى على امكانياتها وقواها ، جمدها في شكل من اشكال الحياة الساكنة •

وبهذه الامثلة يرينا تويمبي كيف ان نقص التحدي او زيادته وعنفـــه يؤثران بصورة واحدة على قوى التاريخ الانساني •

ونحن يمكننا الى حد ما ان نصوغ هذا الرأي الذي ذهب اليه المؤرخ صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم ، فقد نستطيع ــ حيث لم نصل بهـــذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي وغايته التاريخية ــ ان نفسّر هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في هذا المجتمع ، اعني شروط حركته عبر القرون •

والواقع ان القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدين هما : الوعـد والوعيد ، ومعنى ذلك انه قد وضعه في انسب الظروف التي يتسنى له فيها ان يجيب على تحد روحي في اساسه •

فالوعيد هو الحد الادنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر ، والوعد هـــو الحد الاعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا ، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الانســان •

وبذلك نجد ان الضمير المسلم قد وضع بين حدي العمل المؤثر ، وهما الحدان اللذان ينطبقان على مفهوم الايتين الكريمتين :

(أ) فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون • (وعيد)

(ب) انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون • (وعد)

وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبذله مجتمع يعمل طبقا لاوامر رسالة ، اعني طبقا لغايته •

في هذه الحالة الروحية صبر بلال رضي الله عنه على ما كان يلقاه من عذاب ومحن ، فوجدناه وهو في قمة المحنة يرفع اصبعه وهو يكرر اجابتــه على تحدي قريش: احد ••• احد •• ، ولم تستطع قوة في الارض ، ومـــا كان لها ان تستطيع ــ ان تخفض اصبعه ، اذ ان روحه ، في اللحظة التي كانوا يصبون فيها العذاب على بدنه كانت منغمرة في فيض نوراني لا يوصف ، هو « وعد » الحـــق •

وقصة المرأة التي طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم اقامة حد الزنا عليها تبرز لنا قيمة الوعيد في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة .

وربما افدنا من هذه القصة ومن سابقتها ، كيف تكون الحركة التاريخية التي تقع بين حدي ـ الوعد والوعيد ـ هادفة الى ما هو اعلى ، محلقة فوق ما هو ادنى .

فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال تقع اذن بين حالين من احوال النفس ، لا يوجد وراءهما الا الخمول والرخاوة في جانب ، واليأس والعجز في جانب آخر .

وان القرآن الكريم ليعرض لنا صورة اخاذة لهذين الحدين اللذين يضمان العمل المثمر في قوله تعالى :

« ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، انه ليؤوس كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، انه لفرح فخور »

التاريخ والعلاقات الاجتماعية

وهكذا تحتمل فكرة « الحركة التاريخية » تفسيرات عدة ، فمؤرخ كتويسبي يقدم في تفسيرها تأثير الوسط الطبيعي ، وعالم الاجتماع يستطيع اذا هو اعتمد على تعاليم المدرسة الماركسية ان يغلب تأثير العامل الاقتصادي •

ولكنا نجد في التحليل الاخير ان آلية الحركة التاريخية انما ترجع في حقيقتها الى مجموع من العوامل النفسية الذي يعتبر ناتجا عن بعض القوى الروحية ، وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الانساني •

وهكذا وجدنا في مستهل القرن التاسع عشر احد كبار المؤرخين : « جيزو » يحلل الحركات التاريخية في اوروبا ، فيرد المشكلة الى حدود علم اجتماع وعلم النفس معا • فالمؤرخ الفرنسي الكبير يرى ان التاريخ من حيث كونه (علم ما وقع فعلا) يمكن ان يتناول موضوعه بطريقتين : فاما ان يجد مجال دراسته في الفرد نفسه ، في كل ما يؤثر في حياته ، ويغير من صفات انسانيته ، واما ان يجده في الوسط الذي يحيط بهذا الفرد ، اعني في كل ما يؤثر في حياة المجتمع ، ويغير من صفاته ، والتاريخ على اية حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له « الذات » ، والمجال الذي يحوطها على سواء •

اي انه على ما ذهب اليه علم الاجتماع : « النشاط المشترك » المستمر الذي تقوم به الكائنات ، والافكار ، والاشياء ، مطبوعا على صفحة الزمان •

واذا اردنا تعبيرا ادق فانا نقول : ان صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة :

أ ـ تأثير « عالم الاشخاص »

ب ـ تأثير « عالم الافكار »

ج ـ تأثير « عالم الاشياء »

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة ، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج ايديولوجية من « عالم الافكار » ، يتم تنفيذها بوسائل من « عالم الاشياء » ، من اجل غاية يحددها « عالم الاشخاص » .

فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الاشخاص والافكار والاشياء جميعا ، ومعنى هذا انه لا يمكن ان يتم عمل تاريخي اذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط اجزاءها في نطاقها الخاص وبين هذه العوالم ، لتشكل كيانها العام ، من اجل عمل مشترك .

وكما ان وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة ، فان توافق هذه الوحدة مع الغاية منها — وهي التي تتجسم في صورة « حضارة » — يعد ضرورة ايضا . وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود « عالم » رابع ، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية او ما نطلق عليه « شبكة العلاقات الاجتماعية » .

ولقد اشرنا فيما مضى الى ان المجتمع ليس مجرد كمية من الافراد ، وانما هو اشتراك هؤلاء الافراد في اتجاه واحد ، من اجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية ، ونضيف الان ان «عمل» المجتمع ليس مجرد اتفاق «عفوي» بين الاشخاص والافكار والاشياء ، بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة ، بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه وفي مداه « تغيير » وجوه الحياة ، او بمعنى اصح : تطور هذا المجتمع .

أصل العلاقات الاجتماعية

ومع ذلك فان شبكة العلاقات اللازمة لاداء العمل الاجتماعي المشترك ليست نتيجة اولية تستحدثها العوالم التي يتكون منها مجتمع معين ، بل هي نتيجة الظروف والشروط التي تحدث الحركة التاريخية نفسها .

ولقد رأينا ان هذه الحركة يمكن تفسيرها على انها ثمرة لتعارض معين طبقا لمنهج هيجل ، او على انها اجابة على تحد معين على ما ذهب اليه توينبي .

والمعلوم ان اول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات . وعلى هذا نستطيع ان نقرر **ان شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الاول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده.** ومن اجل ذلك كان اول عمل قام به المجتمع الاسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الانصار والمهاجرين . وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الاسلامي ، لا لانها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي صل الله عليه وسلم ، ولكن لانها تتفق مع اول عمل قام به المجتمع الاسلامي ، اي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية ، حتى قبل ان تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاث . .

فان التاريخ انما يبدأ في الواقع قبل ان تتكون هذه العوالم ، وذلك واضح في حالة المجتمع الاسلامي ساعة ميلاده . كما انه قد ينتهي — احيانا — بينما المجتمع غني بما فيه من « اشخاص » و « افكار » و « اشياء » . كما قد حدث ايضا للمجتمع الاسلامي ابان افوله ، اي عندما نجم في تطوره مركب القابلية للاستعمار . لقد كان المجتمع الاسلامي آنذاك غنيا ، ولكن شبكة علاقاته الاجتماعية قد تمزقت .

وهو ما المح اليه النبي صلى الله عليه وسلم دون شك — للتربية لا لمجرد

الخبر ــ في قوله : « يوشك ان تداعي الامم عليكم كما تداعي الاكلة الى قصعتها . قالوا : او من قلة نحن يومئذ يا رسول الله .. ؟ قال لا ، بل انتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور اعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قيل : وما الوهن يا رسول الله .. ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . لقد كان هذا الحديث ضربا من التنبؤ والاستحضار : استحضار صورة العالم الاسلامي بعد ان تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية ، اي عندما لا يعود مجتمعا ، بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل .

ولا ريب ان جيلنا الحاضر يدرك هذا الحديث اكثر مما كان يدركه اصحاب النبي ، لانه يصف في مضمونه العالم المستعمر والقابل للاستعمار ، الامر الذي تعرضنا فيه لتجربة شخصية .

ومهما يكن من شيء ، فان احدا من الناس لا يستطيع ان يدعي ان هذه العلاقات مجرد اثر ناتج عن اضافة اشخاص وافكار واشياء الى المجتمع . فالواقع اننا حين نتحدث عن عالم من هذه العوالم الثلاثة ، فانما نقصد الى الحديث عن المجتمع في مرحلة من مراحل تغييره ، اي في مرحلة يعتبر كل عالم منها ــ في ذاته ــ ثمرة هذا التغيير .

« فالشخص » في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع ، وانما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة . وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة ، اذ هو يدين لها بكل ما يملك من افكار واشياء .

وبعبارة اخرى كل من العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية التالية :

ناتج حضارة = انسان + تراب + وقت .

هذه العلاقة العضوية التاريخية الاساسية تتجلى في كل عنصر من عناصر المجتمع الثلاثة لتؤكد وحدة تأثيره منفردا ، كما تتجلى في علاقاته بالعنصرين

الاخرين لتؤكد وحدة تأثيرها مجتمعة • وهي تتجلى بصفة خاصة في الاطار الشخصي للفرد، حين تقدم له بصورة ما جوهر نظام علاقاته الاجتماعية، وخلاصة القول ان اصل شبكة العلاقات الاجتماعية ـ الذي يتيح لمجتمع معين ان يؤدي عمله المشترك في التاريخ ـ انما يكمن في تخلّق تركيبه العضوي التاريخي• وعلى هذا فان تاريخ هذا التركيب هو الذي يفسر اصله ، كما يحدد في الوقت نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية لحظة نشوئها •

طَبيعَـةُ العَلاقَاتُ

لو اننا وجدنا في مكان معين ، في زمن معين ، نشاطا متآلفا من الناس والافكار والاشياء دلنا ذلك على ان الحضارة قد بدأت في هذا المجال ، وان تركيبها قد تم فعلا (في عالم الاشخاص) .

ان العمـــــل الاول في طريـــق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي **يغير الفرد من كونه ((فردا)) « Individu » الى ان يصبح ((شخصا)) « Personne » وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنـــــوع الى نزعات اجتماعيـــة تربطــه بالمجتمـع .**

هذه العلاقات الخاصة بعالم « الاشخاص » هي التي تقدم الروابـــط الضرورية بين الافكار والاشياء في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمـــع مـــا .

واجتماع الاشخاص في اي ظرف ، في اي مكان هو التعبير المرئي عن هذه العلاقات في مجال معين من مجالات النشاط الاجتماعي .

وجميع صور هذا الاجتماع ــ سواء كانت في هيئة مظاهرة ، ام مدرسة، ام جيش ، ام مصنع ، ام نقابة ، ام سينما .. هي تعبير عن شبكة هـــــذه العلاقات في صور مختلفة .

فالاجتماع الذي يتمثل فيه اول عمل يؤديه مجتمع ابان ميلاده يترجـــم ترجمة صادقة وقوية عن شبكة علاقاتـــه .

واصدق ما يدل على ذلك في المجتمع الاسلامي اجتماع المسلمين في المسجد ، في صلاة الجمعة مثلا ، فهذا الاجتماع يحمل في مضمونه اكبر المعاني التي تذكره بميلاده : فهو رمزه وتذكاره .

هذه القيمة الرمزية والتذكارية لاجتماع الاشخاص موجودة في جميع المجتمعات ذات النموذج العقيدي ، وهي متمثلة في المجتمع المسيحي في اجتماعات الاحد ، التي تذكر بعهد المغارات الرومانية الاولى • كما انهـــا موجودة في المجتمع السوفيتي ، حيث يتذكر الناس بمشيتهم العسكرية ، واناشيدهم الوطنية ، كل عام في الميدان الاحمر ، الاجتماعات العمالية الاولى، قبل السابع عشر من اكتوبر ١٩١٧ •

بيد ان جميع العلاقات السائدة بين الناس تعتبر علاقات ثقافية ، اعني انها خاضعة لاصول ثقافة معينة ، على ما ذهبنا اليه في دراسة سابقة ، حيــث قلنا : **ان الثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ، كما انها مجموع من القواعد الاخلاقية والجمالية •• الخ •**

فاذا تناولنا مثلا لونا من الالوان باعتباره يعطي صبغة معينة في محيط ما ، فانه يعتبر من هذه الناحية علاقة جمالية •

ومن الامثلة على ذلك اننا نختار لون ملابسنا كبما « يروق منظرنا في اعين الاخرين » ، او على الاقل ، حتى لا ينفروا منا • وبهذا يظهر لنا ان الحديث عما يسمى « باللون المحلي » ليس عديم الجدوى : اذ هو اللون الذي يطبع « المحيط » في وسط معين •

ولو اننا التقطنا صورة جمهور من الناس تعداده مائة الف مثلا ، فستظهر الصورة لونا غالبا يشيع بصفة خاصة في جو المكان الذي اخذت منه • فلو كانت الصورة لاحد الاماكن ــ اينما كان على طول المحور من واشنطن الى موسكو ــ فستبدو لعين الناظر قاتمة ، لان السواد هو اللون الخاص بذلك المحيط الثقافي • اما اذا كانت لاحد الاماكن على طول المحور من طنجة الى جاكرتا ــ فانها ولا شك ستكون شاحبة ــ لان البياض هو اللون الخــاص بذلك المحيط الجديد • **وكل ما فعلته الصورة في كلتا الحالين هو انها اظهرت العلاقة الجمالية الخاصة وسط معين •**

وهناك ايضا العلاقة الاقتصادية ، وهي التي تتجلى في وسط تم فيه تقسيم العمل ، نتيجة لاكتمال التركيب العضوي التاريخي لعناصر : الانسان والتراب والوقت .

وبذلك نستطيع ان نقرر بصفة عامة ان كل ما يكون صلة من اي نوع في نطاق العوالم الثلاثة : **عوالم الاشخاص والافكار والاشياء** ، او بينها ، هو في الحقيقة علاقة مشروطة بوجود ثقافة ، وبالتالي تكون جميع اشكال الاتصال الفكري ، كالفن او اللغة ــ من باب اولى ــ علاقة اجتماعية .

وجدير بالملاحظة ان نذكر ان المدرسة الماركسية ترجع الشبكة الاجتماعية بأكملها الى المخطط الاقتصادي ، وهي تجعل العلاقات الاقتصادية في المجتمع ، اساسا يقوم عليه نشاطه المشترك .

ولا ريب انه ينبغي ان تدور مناقشة النظرية الماركسية في هذه النقطة ، في الاتجاه الذي سلكناه في كتابنا « مشكلة الثقافة » (١)

والواقع ان هناك نقطة مشتركة بيننا وبين المصطلحات الماركسية . فلقد قررنا فيما يتعلق بمفهوم كلمة « ثقافة » ان النظرية الماركسية ليست مخطئة، ولكنها ناقصة بالنسبة الينا ، لانها بهذه الصورة لا تسمح لنا ان نحقق بناء نموذج الثقافة الخاصة بنا على هذا التعريف .

وليس لدينا ــ على هذا ــ فيما يتعلق بالتعريف الماركسي اية مقدرة على التفسير ، الا في حدود تعبير النظرية نفسه ، بحيث تظل بالنسبة الينا ، وفي حدود هذا التعبير ، غير مفهومة ، وغير قابلة للتطبيق ، على حين انها بعكس ذلك تماما ، فهي مفهومة وصالحة للتطبيق ، بالنسبة للماركسي ، على ما تؤكد له تجربته اليومية ذاتها ، اذ هو يجد في ذهنه العناصر التي تكمل التعريف ، وتمنحه فاعليته عند التطبيق في وسطه .

---

(١) انظر كتابنا « مشكلة الثقافة »

وتلك مع ذلك حالة خاصة لمشكلة عامة ، وهي تترجم عن الفرق بين الفكرة المعروضة ، ذات الطابع الشخصي الذي ينسبها الى واضعها ، من حيث كانت نتاج عقله ، وصورة خاصة لرؤيته الاشياء ، وبين الفكرة المفروضة ، ذات الطابع غير الشخصي ، لانها تنبثق عن اتجاه في الفلسفة خاص بوسط اجتماعي بأكمله ، بحيث يمكننا تعريفه بأنه صورة الفكر العام في هذا الوسط ، او بحسب تعبير والتر شوبارت Walter Shubart روحه الموهوبة التي تنتسب الى الخلود •

هذه الروح الماركسية لا تظهر في براهين الماركسية ، وان كانت هي التي تجعلها مفهومة قابلة للتطبيق في المجتمع الماركسي •

فاذا قال ماركسي : **ان من الممكن تطوير مجتمع معين بالتاثير في ظروفه الاقتصادية** ، كانت هذه العبارة كاملة في عقله ، صادقة في تجربته اليومية •

اما بالنسبة لنا فهي عبارة جوفاء ، لا تثبت تجربتنا الشخصية او الاجتماعية منها شيئا •

وانا ارى مثلا تأثير عامل اقتصادي قوي كالبترول ، على تطور بعض البلاد العربية ، منذ ربع قرن ، واراني مضطرا في ضوء هذه التجربة وغيرها الى رفض الفكرة الماركسية : فان البترول لم يعجز عن رفع المستوى الاجتماعي في هذه البلاد فحسب ، بل لقد هبط بهذا المستوى ، بما في ذلك القيم الاخلاقية • حتى انه في بلد يعتمد على البترول كالعربية السعودية ، دوى فيه منذ حوالي ثلاثين عاما نفير الفكرة الوهابية وهي التي كان جيلنا ينظر اليها على انها خميرة البعث العربي والنهضة الاسلامية ، في مثل هذا البلد لم يكن للبترول ـــ من وجهة نظر التاريخ ـــ سوى نتيجة واحدة هي : انه احرق الفكرة الوهابية • (١)

---

(١) هذه النظرة تعود الى تاريخ وضع الكتاب عام ١٩٦٢ وهي بالطبع لا تعكس اي رأي للمؤلف يتعلق بتطور العربية السعودية في السنوات العشر الاخيرة .
« الناشر »

اللهم الا اذا قورنا ان للحركة الرجعية والحركة التقدمية في نظـــرة الماركسي نفس المعنى فنحن ، مضطرون الى القول اخيرا بأن المجتمع لا يخضع في تطوره لحكم العوامل الاقتصادية وحدها ٠

بيد اننا نبادر الى القول بأن البرهان الماركسي صحيح ، مؤكد لفاعليته في واقع الحياة العملية ، لانه مكمل في هـــذا الواقع بالروح التي تحـرك الاشخاص والافكار والاشياء ، وهي العناصر التي تؤدي «النشاط المشترك» في البلاد الشيوعية وغيرها ٠

ولا شك ان هذه « الروح » الماركسية هي التي تخلق بين الاشخـاص العلاقات الفردية التي تدفعهم الى المشاركة في هذا النشاط ٠

فاذا حدث في لحظة معينة ان زادت فاعلية هذا النشاط المشترك ــ صانع التاريخ ــ او نقصت فان المؤرخ يستطيع ان يعبر بطرق كثيرة عن هــذه الظاهرة الاجتماعية ، فمثلا يمكنه ان يعزوها الى تغيير في الظروف الاقتصادية، حين ينظر الى الامور من وجهة النظر الماركسية ٠

ويمكن ايضا ان يعزوها الى تغيير في الظروف الثقافية بصفة عامــة ، حين ينظر اليها من وجهة نظر مادية دون ان يبالغ في هذه المادية ٠

فهذان التحديدان مختلفان ، متقابلان ، بحيث يعبر كل منهما عــن جانب خاص من الظاهرة ، وهما لا يتضمنان تعبيرا عن التغيير الاساسي في « الروح » ، الذي يعد كل تغيير اخر بالنسبة اليه مظهرا جزئيا من مظاهره ، وعرضا من اعــراضه ٠

وهـــكذا يترجح لدينـا ان نعـزو الظاهرة المذكورة الى تغيـير في **« شبكة العلاقات الاجتماعية »** ٠ وبهذه الطريقة تتناول التغيير في مجموعــه حين نعبر عنه تعبيرا جذريا فنقول بأن : « شبكة العلاقات الاجتماعية » تغيرت، حيث كانت هذه هي النتيجة الاولى الرئيسية لـ « روح » المجتمع ٠

وان الطبيعة لتمدنا في هذا الصدد بمثال رائع ، فهي لا تجري التغييرات الحيوية في الكائن الحي ، تلك التغييرات التي تحفظ حياته ، حين تقدم اليه المنتجات العضوية ، في صورة كميات من المادة ، اذ الواقع ان هذه المـادة لا تتغير طبيعتها خلال العمليات الحيوية ، فالايدروجين يظل كما هو عنـد تمثيل عناصر الغذاء في خلايا الجسم ، والكربون يظل كربونا .

فليست العناصر اذن ــ أعني المادة ــ هي التي تتغير في عملية التمثيل ، ولكنها العلاقات الكائنة بين هذه العناصر وحدها .

والحياة الحيوانية والنباتية هي الاخرى خاضعة لهذه العلاقات ، فضلا عن مادة العناصر العضوية ذاتها ، وبذلك يمكننا ان نرى في النظام الحيوي (البيولوجي) ، اعني في عمل الطبيعة ذي الاهمية البالغة ، كيف يجري تغيير الطاقة الى مادة ، بواسطة الكائن الحي ، تماما كما يحدث في نطاق النظـام الطبيعي ، طبقا لنظرية انشتين .

كذلك الامر في الحياة الاجتماعية : **فان التغييرات التي تتم فيها لا يصح ان تعزى ابتداء الى « المادة الاجتماعية » اعني : الاقتصاد وكـل مـا يتصل بالعمل الحسي ، وانما تعزى الى « العلاقات » التي تحول الشـروط السابقة للظاهرة الاقتصادية ذاتها ، حين توحد عناصرها في خلق حياة انسانية منظمة ، من اجل الاضطلاع ببعض الوظائف الاجتماعية ، في نطاق « العمـل المشترك » الذي يصنع التاريـخ .**

الثروة الاجتماعية

لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من « اشياء » ، بل بمقدار ما فيه من افكار .

ولقد يحدث ان تلم بالمجتمع ظروف أليمة ، كأن يحدث فيضان او تقع حرب ، فتمحو منه « عالم الاشياء » محوا كاملا ، او تفقده الى حين ميزة السيطرة عليه ، فاذا حدث في الوقت ذاته ان فقد المجتمع السيطرة على « عالم الافكار » كان الخراب ماحقا . اما اذا استطاع ان ينقذ « افكاره » فانه يكون قد انقذ كل شيء ، اذ انه يستطيع ان يعيد بناء « عالم الاشياء » .

لقد مرت المانيا بتلك الظروف ذاتها ، كما تعرضت روسيا لبعضها ، ابان الحرب العالمية الاخيرة . ولقد رأت الدولتان ـ وبخاصة المانيا ـ الحرب تدمر « عالم الاشياء » فيهما . حتى اتت على كل شيء تقريبا . ولكنهما سرعان ما اعادتا بناء كل شيء ، بفضل رصيدهما من الافكار .

هذا البناء هو في ذاته نوع من العمل المشترك الذي يقوم به مجتمع معين ، ولقد رأينا فيما تقدم ان تمام هذا العمل ضرب من المستحيل ، ما لم تكن هناك شبكة العلاقات التي تنظمه ، وتجعله سبيلا الى غاية معينة . وبذلك نستنتج ان ثروة الافكار وحدها ليست بكافية ، كما دلنا على ذلك تاريخ المجتمع الاسلامي في موقفين .

فعندما بدأ هذا المجتمع دخوله حلبة التاريخ في السابع الميلادي كان « عالم افكاره » ما زال جنينا غامضا ، اذا ما قيس بالمجتمعات المتحضرة التي غزاها وهزمها في مصر ، وفي فارس ، وفي الشام .

فاذا ما نظرنا اليه وقد اخذ بعد ذلك بستة قرون يترنح في مهاوي التدهور والانحطاط ، وجدناه يملك اغنى مكتبات العالم آنذاك .. !! ..

لقد انهار تحت ضربات شعوب حديثة العهد بالوجود ، كالاسبانيين الذين كانْ « عالم افكارهم » لا يزال فقيرا نسبيا • وبذلك نرى ان المكتبات لا تغني من الهزيمة شيئا •

ففاعلية « الافكار » تخضع اذن لشبكة العلاقات ، اي اننا لا يمكن ان نتصور عملا متجانسا من الاشخاص والافكار والاشياء دون هذه العلاقات الضرورية • وكلما كانت شبكة العلاقات اوثق ، كان العمل فعالا مؤثرا •

وعليه ، فاذا كانت ثروة مجتمع معين يتوقف تقديرها على كمية افكاره من ناحية ، فانها مرتبطة بأهمية شبكة علاقاته من ناحية اخرى •

والحد المثالي للتطور الاجتماعي الذي يمكن ان يبلغه مجتمع ما متوقف على الحالة التي يحقق فيها هذا المجتمع افضل الظروف النفسية الزمنية لاداء نشاطه المشترك •

وهذا يحدث بوجه عام عندما يكون المجتمع في حالة النشوء ــ كالمجتمع الاسلامي في العهد المدني ، وكالمجتمع المسيحي في مغارات روما ــ اذ انه في هذه الحالة يحقق ارفع درجات الاندماج والانسجام • حيث يكون التوتر الاخلاقي قد بلغ ذروة درجاته •

ويبلغ المجتمع الحد النهائي في تطوره عندما يفقد بالتدريج خاصة الانسجام • فيتفرق افراده ذرات ، ويصبح في نهاية تحلله عاجزا تماما عن اداء نشاطه المشترك • اي انه يتوقف عن ان يكون « مجتمعا » بالمعنى الدقيق الذي نقصد اليه من هذه الكلمة في عرضنا •

وطبيعي ان نجد العناصر الوظيفية في المجتمع تتغير بين هذين الحدين ، في نفس الاتجاه • ويمكننا ان نمثل هذا التطور بطريقتين : **من ناحية الكم** بوساطة معادلة تترجم عن عدد العلاقات التي تحتويها شبكة العلاقات الاجتماعية ، **ومن ناحية الكيف** بوساطة معادلة تترجم عن المستوى النفسي الزمني ، او بعبارة اخرى : عن فاعلية هذه الشبكة •

واساس الترجمة الكمية متمثل في عدد العلاقات التي تربط الفـــرد بغيره من اعضاء الجماعة ، في لحظة معينة من تطور الجماعة •

فاذا كان المجموع الكلي للافراد اعضاء الجماعة هو (ن) ، فان فردا واحدا يستطيع ان يحوز عددا من العلاقات هو (ك) ، هكذا :

ك = ن − س

واذن فالمجموع الكلي للافراد (ن) الذي يكون الشبكة الاجتماعية في مجموعها ، مع اشتمالها على المجموع الكلي للعلاقات هو (ل) هكذا :

ل = ن ك = ن (ن ـ س) •

والعدد (س) هو الذي يمثل ـ كما نرى ـ دليل التطور من ناحية الكم • وقيمة هذا العدد تقع بالضرورة بين حدي التطور الاجتماعي الـذي اشرنا اليه ، كما انها تدل عليهما • فهي اذن وبالضرورة واقعة بين (أ) و (ن) ، او بتعبير الجبر :

ن > س > ١

وعليه ، فاذا ما بلغ المجتمع ذروة نموه فان شبكته الاجتماعية تكون : ـ

ل ١ = ن (ن ـ أ) • اعني الحد الاقصى • وهذه هي الحالة التي يشير اليها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضـــا » •

وهو قول يعكس حالة المجتمع الاسلامي الاول ، حين حقق بالمدينـة نموذج المجتمع المنسجم في طبقة واحدة ، حيث كان كل فرد مرتبطا ارتباطـا واقعيا بكل الاخرين من اعضاء المجتمع بوساطة علاقات شخصية •

اما حين يبلغ المجتمع نهاية تحلله فان شبكته الاجتماعية تكون عـــلى صـــورة :

ل ٢ = ن (ن ـ ن) = صفر . اي ان الشبكة الاجتماعية قد بليت ، فلم تعد قادرة على مواجهة نشاط مشترك ، غدا منذئذ مستحيلا .

والواقع ان هذا الانتقال من الحالة المثالية الى الحالة النهائية يحدث في هيئة انفصال داخلي ، تنشأ عنه ألوان من التمزق في الجسد الاجتماعي ، او صدوع وثغرات في انسجامه وتوافقه .

والعدد (س) الذي يرمز الى كمية هذه الثغرات والانفصالات يدل اذن وبصورة ما على **الفراغ الاجتماعي** ، وهو ينطبق من الوجهة العذدية على درجة الافتقار في الشبكة بأكملها .

ويمكن التعبير عن هذا التطور بطريقة اخرى ، من ناحية الكيف ، في الرسم البياني الذي يترجم عن الدورة التطورية التي تمر بها كل حضارة (١).

والمراحل الثلاث في هذه الدورة تعبر عن الادوار الثلاثة التي يمر بها المجتمع : الحالة الكاملة ، حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة «الروح» ، ومتصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي .

والمرحلة التالية هي المرحلة التي تكون فيها جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة « العقل » بخاصة ، ومتجهة نحو المشكلات المادية . اما المرحلة الثالثة فتصور نهاية تحللها تحت سلطان « الغرائز » المتحررة من وصاية الروح والعقل ، وفيها يصبح النشاط المشترك مستحيلا ، ضاربا بأطنابه في اغوار الفوضى والاضطراب ، وهو ما نجده في حالة المجتمع الاسلامي بالاندلس ، في العصر المشئوم المسمى بعصر « ملوك الطوائف » .

ومن الممكن ايضا ان نصف هذه العصور المختلفة للنمو الاجتماعي حين ندل عليها بتخطيط ثقافي ، هو الذي اوردنا تحليله في كتابنا «مشكلة الثقافة».

والواقع ان بامكاننا ان نعتبر كل مرحلة من مراحل النمو الاجتماعي

---

(١) يجد القاريء تخطيط هذه الدورة في احد فصول هذا الكتاب .

متميزة بغلبة عنصر ثقافي محدد . وبدهي ان تكون ثقافة اي مجتمع ناشيء ثقافة اخلاقية . وعلى عكس ذلك حالة المجتمع لحظة افوله ، اذ نجده يغرق في نزعة جمالية تبتعد قليلا قليلا عن اصول الجمال الحق .

ومن ناحية اخرى ينبغي ان نذكر ان المجتمعات الحديثة تحقق انسجامها وتوافقها حين تنشيء شبكة علاقات حكومية ، غير شخصية ، وهي شبكة منبسطة وكاملة بقدر الامكان . وما صناديق التأمينات الاجتماعية في البلاد المتقدمة الا صورة مادية لهذه الشبكة .

وبدهي ان الدولة التي تحقق في هذا النطاق التقدم الانساني في اعظم اشكاله هي التي تحقق شبكة العلاقات الاجتماعية على اقرب ما تكون من التي نسجها الاسلام في العهد المدني .

المرض الاجتماعي

وهكذا الامر دائما ، فاذا ما تطور مجتمع ما على اية صورة ، فان هذا التطور مسجل كما وكيفا في **شبكة علاقاتــه ..**

وعندما يرتخى التوتر في خيوط الشبكة ، فتصبح عاجزة عن القيـام بالنشاط المشترك بصورة فعالة ، فذلك امارة على ان المجتمع مريض ، وانه ماض الى نهايته .

اما اذا تفككت الشبكة نهائيا ، فذلك ايذان بهلاك المجتمع ، وحينئـذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ .

ولقد تحين هذه النهاية والمجتمع متخم بالاشخاص والافكار والاشياء ، كما كانت حال المجتمع الاسلامي في الشرق ، في نهاية العصر العباسي ، وفي المغرب ، في نهاية عصر الموحدين.

وربما كانت هذه الحالة من التحلل والتمزق في المجتمع الاسلامي — حين اصبح عاجزا عن اي نشاط مشترك — هي التي اشار اليها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يوشك ان تداعى الامم عليكم كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، قالوا : او من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ — قال : لا .. بل انتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب اعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قيل وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهيـة المـوت » .

ولكن هذا ليس خاصا بالمجتمع الاسلامي ، فعندما اختفت الامبراطورية الاشورية القوية في القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن هذا الحدث التاريخي ليعزى الى صدفة الحرب ، ولكن الى تحلل المجتمع الذي كان يمثل هـــذه

الامبراطورية ، والذي اصبح فجأة عاجزا عن اي نشاط مشترك • فشبكة علاقته المتمزقة لم تعد تتيح له ان يحافظ على امبراطورية « اشوريا ينبال » القوية •

ومع ذلك فقبل ان يتحلل المجتمع تحللا كليا يحتل المرض جسده الاجتماعي ، في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية ، للاسباب التي ذكرناها كما وكيفا • وهذه الحالة المرضية قد تستمر قليلا او كثيرا ، قبل ان تبلغ نهايتها في صورة انحلال تام • وتلك هي مرحلة التحلل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي •

بيد ان جميع اسباب هذا التحلل كامنة في شبكة العلاقات ، فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسوراناميا ، بينما شبكة علاقاته مريضة ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الافراد • واكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب « الانا » عند الفرد من « تضخم » ينتهي الى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية ، عندما يختفي « الشخص » او بالاخص عندما يسترد « الفرد » استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي •

فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم • فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا او مستحيلا ، اذ يدور النقاش حينئذ لا لايجاد حلول للمشكلات ، بل للعثور على ادلة وبراهين •

في حالة الصحة يكون تناول المشكلات من اجل علاجها هي ، اما في الحالة المرضية فان تناولها يصبح فرصة لتورم « الذات » وانتفاشها ، وحينئذ يكون حلها مستحيلا ، لا لفقر في الافكار او في الاشياء ، ولكن لان شبكة العلاقات لم تعد امورها تجري على طبيعتها •

وفي هذه المرحلة ايضا لا يهتم احد بالمشكلات الواقعية ، كما كان يفعل ائمة الفقه الاسلامي ، بل يكون الاهتمام منصبا على مشكلات خيالية ، على ما كان عليه فقهاء « عصر الانحطاط » حيث لم يعودوا يكبون على المشكلات

التي يثيرها نمو المجتمع ، بل على حالات « خيالية محضة » كالبحث في جنس الملائكة ، او كالتوضؤ من وطء البهيمة •

وبوسعنا ان نتخيل ما كان يمكن ان يحدث ــ في مجتمع مريض ــ لو ان خليفة من طراز عمر بن الخطاب اراد ان يعزل رجلا كخالد بن الوليد من قيادة جيش الشام !! ان محاولة كهذه كانت كفيلة بزلزلة العالم الاسلامي لو انها حدثت بعد ذلك بقرنين او ثلاثة قرون فحسب •

ولكن « الانا » الاسلامية كانت في العهد الاول سليمة سوية ، فكان (فعل) عمر دون عقدة ، وكان (رد فعل) خالد دون عقدة ايضا • لان علاقاتهما كانت علاقات سوية منزهة •

ومن الوقت الذي تظهر فيه العقد النفسية على صفحة « الانا » في مجتمع معين يغدو عمله الجماعي صعبا او مستحيلا • وهنا يحق لنا ان نطلق على هذه الحالة (مأساة اجتماعية Socio - drame) على ما ذهب اليه « مورينو » (١) • وهي مأساة اجتماعية في مستوى : نَ (ن ــ س) من علاقات اجتماعية •

وعلى هذا ، فاذا ما درسنا امراض مجتمع معين ، من مختلف جوانبه الاقتصادية والسياسية والفنية •• الخ •• فاننا ندرس في الواقع امراض « الانا » في هذا المجتمع ، وهي الامراض التي تتجلى في لا فاعلية شبكته الاجتماعية •

وعندما ننسى او نغفل هذا الاعتبار النفسي فان حكمنا يكون على ظواهر الاشياء لا على جواهرها •

وهكذا نجد بعض الساسة في بعض البلدان الافريقية والاسيوية يحاولون في الميدان الاقتصادي تطبيق حلول فنية يقترحها بعض

---

(١) عالم نفسي يعتبر مؤسسا للمدرسة الامريكية التي ترى ان العقد النفسية توجد بين الافراد ، على حين ترى مدرسة فرويد انها موجودة داخل الافراد .

الاخصائيين الإوربيين ، رغم ان هذه الحلول قد تكون عديمة الجدوى في تلك البلاد ، لانها لا تتفق مع عناصر « الانا » فيها ، كما سبق ان بينت ذلك في كتابي « فكرة الافريقية الاسيوية » .

فالحلول الفنية ينبغي اذن ان تتكيف مع نفسية البلد الذي تطبق فيه ومع مرحلة تطوره ، كما ان « الانا » ينبغي ان تتكيف طبقا للحلول الفنية التي يحاول تطبيقها .

ففي الحالة الاولى يكون تناولنا للاشياء من وجهة نظر مرضية ، وفي الحالة الثانية يكون تناولنا لها من وجهة علاجية . وكلا الجانبين ينبغي ألا ينفك عن الاخر ، اذا ما اريد علاج حالة مجتمع يقاسي لونا من الوان الاضطراب في شبكة علاقاته الاجتماعية .

وتلك حالة تستوجب اقصى ما يمكن من الاهتمام والعناية ، لان كل علاقة فاسدة بين الافراد تولد فيما بينهم عقدا كفيلة بأن تحبط اعمالهم الجماعية ، اما بتصعيبها او باحالتها .

فالعلاقة الفاسدة في « عالم الاشخاص » لها نتائجها السريعة في « عالم الافكار » وفي « عالم الاشياء » . والسقوط الاجتماعي الذي يصيب « عالم الاشخاص » يمتد لا محالة الى الافكار والى الاشياء ، في صورة افتقار وفاقة . فهناك افكار رأت النور في المجتمع الاسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي ، كفكرة الدورة الدموية ، ومع ذلك ظلت غائبة عن « عالم الافكار » لان شبكة علاقاته كانت قد تمزقت .

وهناك اشياء بسيطة كانت تعتبر جزءا من « عالم الاشياء » مثل ما كان يطلق عليه اسم (الجوّال) في بغداد ، في القرن العاشر الميلادي ، لقد اختفى هذا (الشيء) من العاصمة العباسية بعد قرنين من الزمان (١) .

---

(١) كان « الجوال » سلة صغيرة من نسيج معدني مزودة بسلسلة صغيرة . ويوضع فيه كمية ضئيلة من الفحم والخشب وقطعة قماش مشحمة ثم تدار السلة بسرعة فيتولد عن ذلك جمرات توقد منها النار المطلوبة .

تلك هي امارة (الافتقار) في « عالم الاشياء » في المجتمع الاسلامي، ابان تلك الحقبة .

وطبيعي ان يمتد تأثير هذا الافتقار الى تكاليف الحياة ، كما تدلنا عليه قائمة الاسعار الخاصة بذلك العهد وسنجد فيها اشارات مفيدة وهامة عن حياة المسلمين اليومية في العصور الوسطى . وقد نقلنا هذه القائمة عن كتاب الاستاذ علي مزاهيري الذي استقاها بدوره من الكتاب القيم الذي وضعه مسيو هنري سوفير في هذا الموضوع . وحسبنا ان نقبس منها الاشارات التالية الخاصة بسعر الكيلو جرام من الخبز في اسواق بغداد ، وقد حسب المسيو هنري سوفير هذا السعر بالفرنك الذهبي :

السنة (٢)	كمية الخبز	السعر
٨١٣	١ كيلو	٠/١٠
٩٤٥	"	٠/٣١
٩٩٢	"	٧/٥٩
١١٥٢	"	٧/٥٠

فنحن نرى ان سعر الخبز قد تغير خلال ثلاثة قرون بنسبة ١ ـــ ٧٥٠ ولو اننا فسرنا هذه الظاهرة في ضوء قانون العرض والطلب فمعنى ذلك ان المنتج قد قل في سوق بغداد ، وهذه القلة لا تأتي الا من الانتاج ـــ اي انها في جوهرها عائدة الى الارض والتوزيع ـــ لكن صفات الارض الطبيعية فيما بين دجلة والفرات لم يعترها تغير منذ الاف السنين ، **فاذا كان الانتاج قد تغير فما ذلك الا لاسباب اجتماعية تتصل بتنسيق الاعمال الزراعية والتوزيع ، اعني : لاضطراب في شبكة العلاقات .**

وطبيعي ان يصيب السقوط الاجتماعي ايضا « عالم الافكار » كما قررنا من قبل ، وكما نلاحظ بصفة خاصة فيما يتصل بتراث ابن خلدون الذي ظل حروفا ميتة في المجتمع الاسلامي حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ومع ذلك فينبغي ان نعلم انه اذا كان لقائمة اسعار الخبز مثلا ان تكشف عن سير هذا الانحطاط والتدهور في القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر ، فان قائمة من القيم الخلقية المتفشية انذاك ستكشف لنا من باب اولي عن درجة هذا الانحطاط !! •• فكلا الامرين يفسر الاخر على سواء •

ان فن خداع المشتري قد يعود في تاريخه الى ذلك العصر ، فلقد شهد القرن الثالث عشر الميلادي بداية ظهور حرفة المحاكاة او تقليد السلع ، وذلك قبل ان تعرفها المانيا لاغراض اخرى بستة قرون •

والواقع انه اذا كانت المانيا قد اخترعتها كيما تستعيض بمواد صناعية عن المواد الاولية التي لا تجدها في زمن الحرب ، فان العصر العباسي قد لجأ الى استخدام البدل من اجل خداع المشترين ، فكان لديهم سكر بديل ، بل لحم بديل • كما وضعت كتب لترشد « الهواة » الى اسرار هذه التراكيب الكيماوية •



المجتمع والقيمة الخلقية

هذه الاعتبارات التي فرغنا من عرضها يمكن ان تعود الى ملاحظتين سبق ان اكدناهما : هما :

١ ــ ان مجتمعا معينا لا يمكن ان يؤدي نشاطه المشترك دون ان توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة ، النفسية ، الزمنية .

٢ ــ وان كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي ، والدستور الجمالي الخاص ، بالمجتمع .

فمن الطبيعي اذن ان نعتبر القيمة الخلقية عنصرا جوهريا في النشاط المشترك الذي يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعية .

هنا تواجهنا مشكلة ذات طابع تكويني هي : هل ينتج المجتمع تلقائيا القيمة الخلقية التي تدفع تغييره في اتجاه غايته .. ؟ .

ليكن مجال بحثنا للاجابة عن هذا السؤال المجتمع العربي الجاهلي ، ولنأخذ منه للتجربة عادة وأد البنات ، فتلك « حالة » سوف نجد فيها قيمة خلقية تؤثر كقوة من قوى التغيير في نطاق مجتمع ، هو المجتمع الجاهلي ، في الوقت الذي كان يتهيأ فيه لدخول التاريخ .

ولدينا الى جانب هذا شهادة مباشرة على العوامل التي كان لها دور مؤثر في هذه الحالة ، ففي القرآن الكريم ــ من حيث كونه وثيقة تاريخية ــ شهادة لا ترد على منشأ عادة وأد البنات ، فلقد وجه القرآن الى عرب الجاهلية خطابه في موضعين :

أ ــ ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم .

(الانعام آية ١٥٠)

ب ــ ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم •

(الاسراء آية ٣٠)

فاذا تناولنا هذين النصين باعتبارهما وثيقتين من وثائق ذلك العصر ــ وجدنا انهما لا تدعان ادنى ريب فيما يتعلق بمنشأ عادة الوأد ، فلقد كان للظروف الاقتصادية التي عاشها العصر الجاهلي اكبر الاثر في نشأة تلك العادة الاليمة ، ان لم تكن هي العامل الوحيد •

ولكن النصين يعبران في الوقت ذاته عن قيمة خلقية معينة في الوقت الذي تدخل فيه في حياة المجتمع ــ لا عن طريق الظروف الاقتصادية التي لم تكن تغيرت بعد ، ولكن مباشرة ، عن طريق النفس ــ لتحدث تغييره • فنحن اذن امام مثال مفيد يتيح لنا ان نبحث مشكلة القيمة الخلقية متمثلة في حالة واقعية •

ولنأخذ الايتين الكريمتين في مجموعهما ، على انهما تشريع لقانون معين، تماما كما تسن الشرائع الحديثة في زماننا قوانينها •

ان تفسير قانون معين في عصرنا انما يكون على اعتبار انه مجرد حدث اجتماعي ، اي ان الذي يسنه انما هو حقائق المجتمع وحدها •

فهل الامر كذلك بالنسبة للحالة التي ندرسها ؟ •

ذلك يقتضينا ان ندرس الايتين اللتين تشرعان « قانون » الموءودة ، على انهما نتيجة للظروف الاقتصادية التي كانت تسود المجتمع الجاهلي • تمشيا مع منطق عصرنا في تفسير الاشياء •

لكنا نلاحظ ان هذا التفسير يؤدي بنا تلقائيا الى تناقض صريح ، اذ لا يمكن ان يحمل اثبات واقع اجتماعي معين ونفي هذا الواقع على اسباب واحدة•

فلو قيل ان « الوأد » نشأ في البيئة الجاهلية بتأثير اسباب اقتصادية خاصة بذلك المجتمع ، كما تشهد بذلك وثائق العصر ، وفي مقدمتها القرآن ،

فان من العسير ان ينسب نفي هذا الوأد الى تأثير العوامل الاقتصادية ذاتها حيث انها لم تتغـير •

واذا كانت الايتان المذكورتان تعتبران من الناحية التاريخية ابطالا « للوأد » فاننا نجد انفسنا امام تناقض صريح اذا ما فسرنا « قانون » الوأد تفسيرا اقتصاديا •

ولقد يؤدينا هذا الموقف الى ان نفسره تفسيرا نفسيا ، حين نعزوه لاسباب تتصل بالتغيير الاخلاقي الذي سبق او صاحب نزول القرآن في الوسط الجاهلي ، ومع ذلك فليس هذا التفسير مقبولا ايضا ، لان الذين عاصروا قانون التحريم المذكور قد مارسوا بأنفسهم تلك العادة الاليمة • ويحسبنا ان نضيف ان عمر ابن الخطاب نفسه كان من بين هؤلاء المعاصرين، حتى يصبح التفسير النفسي التلقائي غير ذي موضوع او قيمة ، شأن التفسير الاقتصادي •

والحق ان عادة وأد البنات كانت ثابتة في عقلية العصر ، وان هـذه العقلية في ذاتها لم تتغير عند نزول قانون التحريم ، فلقد ذكر مؤلف الاغـاني قصة عن جد الفرزدق الشاعر العربي الكبير ، الذي لقب بـ (محيي الموءودات) لقاء ما كان يبذله من فضل في هذا السبيل (١)•

ولكننا نجد في هذه القصة شهادة غير مباشرة على ما نحن بصدده ، فالواقع انها تضيف ان جد الشاعر الاموي ، عندما اقدم على انقاذ اول ضحية من الموت بأن دفع لابويها فدية ــ اراد ان يسوغ لنفسه هذا السلوك فقال : « هذه مكرمة ما سبقني اليها احد من العرب » ، فلو اننا لمسنا في هـذه القولة معناها التاريخي لعلمنا ان شيئا ما لم يكن قد تغير بعد في الوسط وفي العقلية الجاهلية فيما يتعلق بمسألة الموءودة ابان نزول قانون التحريم •

وعليه ، فان القيمة الخلقية التي عبر عنها هذا القانون لا يمكن ان تكون على اية حال ثمرة من ثمرات المجتمع الجاهلي •

---

(١) اورد هذه القصة السيد بشير العوا في كتابه القيم «الاسرة بين الجاهلية والاسلام» ص ٦٣

فلكي نعمم هذه النتيجة ينبغي ان نضع السؤال التالي :

هل يمكن لمجتمع معين ان ينتج قيمه الخلقية ؟ .

وهنا ايضا يستطيع المجتمع الجاهلي ان يعطينا مثالا نحتذيه في وضع اجابتنا عن هذا السؤال ، ان لم يكن له ان يعطينا مفتاحا للمشكلة في صورتها العامة .

فالحق ان هذا المجتمع قد شهد وجوه حياته تتغير فجأة بتأثير بعض القيم الخلقية التي شهد مولدها .

وهو الى جانب ذلك يتيح لنا ان نعقد مقارنة بين هذه الحقبة من التغيير وبين ما مضى من تاريخه ، وهذا التاريخ يمتد في الواقع اكثر من الفي عام ، ابتداء من الجد الاكبر اسماعيل حتى محمد عليهما الصلاة والسلام .

ولقد اثمر هذا التاريخ الطويل فنا شعبيا غنيا ، وخلف تراثا ادبيا لا نظير له بين اداب الامم الاخرى . وتلك هي القائمة التاريخية للمجتمع الجاهلي خلال تلك الحقبة من الزمان .

ولو استخدمنا لغة علم الاجتماع لقلنا : ان هذا هو كل ما أثمره المجتمع الجاهلي ، كثمرة نشاط استقطب حول « الحاجة » و « المنفعة » .

وبذلك نلاحظ اولا ان هذا المجتمع لم ينتج في جملته كثيرا ، ما دام نشاطه قد استقطب على تلك الصورة ، اي ما دام لم يخضع الا لاتجاهات الحياة اليومية وقواعدها .

وفي مقابل ذلك نجده وقد هب فجأة لينتج حضارة رائعة منذ بدأ نشاطه يستقطب حول مجموع من القيم الخلقية التي ولدت في نطاقه ، والتي لا يمكن ان نفسر سر تخلقها بما كان فيه من الاوضاع الاقتصادية والنفسية ، كما وجدنا ذلك واضحا في الموءودة .

هذه الاعتبارات لا تقدم لنا حتى الان الاجابة العامة على السؤال الذي قد وضعناه ، وانما تقدم لنا قرائن قوية تزكيها اعتبارات اخرى •

★★★

فالزواج مثلا يعتبر علاقة اجتماعية جوهرية ، وهو من الناحية التاريخية يعتبر اول عقدة في شبكة العلاقات التي تتيح لمجتمع معين ان يؤدي نشاطه المشترك •

ومع ذلك فمن الواضح انه لو كان امر الانسانية يجري تبعا « لحاجة » النوع و « منفعته » فحسب • فان مجرد اختلاط الرجل بالمرأة ـ كما كانت الحال في العصر الجاهلي ـ يتفق كثيرا مع القواعد البيولوجية التي يخضع لها النوع ، علما بأن عدد الافراد سيتكاثر حتما ، بفعل ما يطلق عليه «الاتصال في نطاق الحرية الجنسية » • بيد اننا نجد ان كل مجتمع معاصر ، بما في ذلك المجتمعات التي تخلع على نفسها الصفة « المدنية » لا يتم فيه اتحاد الجنسين الا على اساس قيمة خلقية معينة ، هي الزواج ، الذي يبارك اتحادهما باشهاره طبقا لخطة دينية رمزية ، وبهذا الاشهار يأخذ اتحاد الرجل والمرأة كل معناه الاجتماعي باعتباره عقدا يتفق ، لا مع حاجة النوع ، بل مع غاية المجتمع •

وهكذا تجري الامور بصورة عامة فيما يتصل بقضية المجتمع ، فان تنظيمه يجري طبقا لمقاييس وقواعد ، وهي في حقيقتها قيم خلقية لم ينتجها ، ولكنها تنظم نشاطه في سبيل غايته •

وكلما حدث اخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له ان يصنع تاريخه •

بل ان محدثي مثل هذا الاخلال ، اولئك الذين يدعون ـ مثلا ـ الى حرية الاخلاق من اجل التقدم ، ليسوا في اعماق نفوسهم سوى اطفال استثارتهم حواسهم ، وهم لا يرتابون لحظة فيما يجرونه على المجتمع من اخطار هائلة • فهم يلعبون بحواسهم كما يلعب الاطفال بأعواد الكبريت دون ان يشكوا في انهم يتركون حيث يلعبون بوادر حريق يلتهم المدينة بأسرها •

الدّين والعلاقات الاجتماعيّة

رأينا ان المجتمع لا ينتج القيمة الخلقية التي تنظم حياته ، او بحسب ما اصطلحنا عليه : تنظيم العلاقة التي تتيح له ان يتم نشاطه المشترك •

ورأينا من ناحية اخرى ان هذا العمل يبدأ اذا ما تم تركيب الانسان والتراب والوقت •

لكن هذا التركيب ـ الذي يتفق من الوجهة التاريخية مع ظهور حضارة معينة لا ينتج تلقائيا ، اذا ان هناك جماعات بشرية ما زالت تعيش حتى الان في حالة ما قبل الحضارة •

وانما يتم هذا التركيب على اثر حدوث « عارض غير عادي » ، او بعبارة اخرى « ظرف استثنائي » •

لقد اختلفت اراء المدارس المختلفة فيما بينها في تفسير ماهية هذا « العارض » •

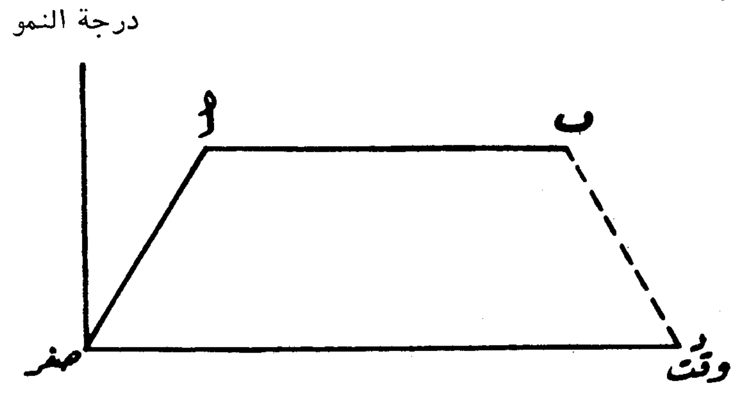
فتويمبي يرى انه يظهر في صورة « تحد » يخلقه الوسط الطبيعي او البشري ، بحيث يصبح المجتمع ملزما بمواجهته والاجابة عليه ، كما سبق ان رأينا •

وهيجل يرى ان « الظرف الاستثنائي » انما يظهر في صورة تعارض بين قضية ونقيضها •

والمجتمعات المعاصرة لا تخرج عن احدى مجموعتين : مجموعة **المجتمعات التاريخية** ، اعني المجتمعات التي تتفق مع تعريفنا الذي وضعناه فيما سبق لتلك الكلمة ، ومجموعة **المجتمعات الراكدة** التي يطلقون عليها كلمة « بدائية » •

فأما المجموعة الاولى ــ وهي المجموعة التاريخية ، التي تتفق مع تعريفنا من ناحية ، والتي تكون ٨٠ ٪ من مجموع سكان البسيطة من ناحية اخرى ــ فان « الظرف الاستثنائي » الذي يسجل نقطة الانطلاق في تاريخ مجتمع معين منها يتفق في الحقيقة مع ظهور فكرة دينية ، في فجر حضارة معينة ٠

ويتمثل تطور هذه الحضارة المعينة حسب التخطط البياني في دورة ذات مراحل ثــلاث :



فنقطة الصفر من الدورة تسجل الحالة السابقة على الحضارة، كما تسجل بــدء ظهــور « **الظــرف الاستثنائي** » **اللازم لاحداث التركيب العضــوي التاريخي بين العناصر الثلاثة : الانسان والتراب والوقت ، وهو التركيب الذي يتفق مع ميلاد مجتمع معين ، كما يتفق بصورة ما مع بداية عمله التاريخي**٠

فالقيم الاجتماعية في هذه النقطة لم تصبح بعد واقعا قائما ٠ وانما هي مجرد احتمالات ٠ والمجتمع ذاته ليس حينئذ سوى « احتمال » في ضمــير الغيب ، و « بذرة » من الامكانيات في غضون التاريخ ٠

وفي هذه الحالة يحتمل وجوده ان يكون او ان لا يكون ، اذ ان « **عالم اشخاصه** » و « **عالم اشيائه** » لم يوجدا بعد ، ولكن عالم افكاره يحتوي على الاقل بذرة امكانياته ، كما تحتوي النطفة كل العناصر العضوية والنفسية المسهمة في تركيب الكائن المقبل ٠ فليس وجوده حينئذ سوى فكرة متجسدة ، احيانا في رجل مثل « ابراهيم » الذي قال فيه القرآن حقا : « ان ابراهيم كان امة » ٠

فسواء كنا بصدد المجتمع الاسلامي او المجتمع المسيحي ، ام كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم او اختفت تماما من الوجود ، نستطيع ان نقرر ان الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية . ومعنى هذا ان « الظرف الاستثنائي » الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره . كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد الى الوجود . ومعنى هذا ايضا ان شبكة العلاقات بكل ما تحتويه من خيوط واطراف ، والتي سيتسنى للمجتمع بفضلها ان يؤدي عمله التاريخي ــ هي ذاتها تعتبر في حيز القوة ، داخل البذرة التي تشتمل جميع اقدارها .

واذن فالعلاقة الروحية بين الله وبين الانسان ، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية ، وهذه بدورها تربط ما بين الانسان وأخيه الانسان ، ولقد علمنا من حديثنا في الفصل السابق انها تلدها في صورة القيمة الاخلاقية . فعلى هذا يمكننا ان ننظر الى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على انهما حدث ، ومن الوجهة الكونية على انهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد .

فنحن نرى من الوجهة التاريخية ان الحدثين يتوافقان ، ونلاحظ من الوجهة الكونية بناء على ما اسلفنا من اعتبارات ان الحدثين يرتبطان ارتباط الاثر بالسبب في حركة التطور الاجتماعي ، **فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني .**

لكنا قد رأينا في فصل مضى ان عدد العلاقات التي تربط الفرد بمجتمع معين متكون من (ن) من الافراد هو : (ن ــ س) من العلاقات .

وبهذا نستطيع ان نقدر بصورة ما درجة الفاعلية الاجتماعية في العلاقة الدينية ، بأن نقر نسبة حسابية بين عدد العلاقات الدينية في مجتمع معين وعدد العلاقات التي تكون شبكته الاجتماعية .

على انه من المعلوم ان فردا ما يحتفظ بـ (ن ـ س) من العلاقات الاجتماعية في مجتمع مكون من (ن) من الافراد ، ولكنه يحتفظ بعلاقة دينية واحدة ، ففاعلية هذه العلاقة في المجتمع تتضح اذن في النسبة الاجمالية التالية:

$$\frac{ن\,(ن - س)}{ن} = (ن - س)$$

ومعنى هذا ان الدين يخلق نظاما اجتماعيا يستحيل فيه الفرد الى افراد كثيرين ، حين يضرب في العدد (ن ـ س) من العلاقات الاجتماعية •

وكلما ضعفت العلاقة الدينية تناقص هذا العدد ، اي انه يتناقص كلما تجاوز المجتمع المرحلة التي تنطبق على نقطة (أ) من تخطيط تطوره البياني • ومن هنا تزداد درجة الفراغ الاجتماعي بين الافراد في محيط هذا المجتمع •

وعلى عكس ذلك نجد انه عندما تقوى العلاقة الدينية ، وبقدر ما تقوى هذه العلاقة مثلا بين نقطتي صفر و أ ـ فان درجة الفراغ الاجتماعي تقل ، حيث تصبح صورة المجتمع بعض ما يوحي به قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » فتلك صورة المجتمع الذي لا يوجد به فراغ اجتماعي •

لكننا نعلم انه للوصول الى هذه الدرجة من الكمال ينبغي ان تتوفر في المجتمع شبكة علاقات اجتماعية نامية ، كيما تمنح البناء الاجتماعي ما يلزمه من متانة واتساق •

كما نعلم مدى الصعوبة التي تحول دون الوصول الى تلك الدرجة ، وهي المثل الاعلى الذي تستهدفه الشرائع جميعا ، الشرائع التي تحاول بما لديها من وسائل انسانية خالصة ان تسد الفراغ الاجتماعي •

ذلكم ولا ريب هو الدرس الذي اراد القرآن ان يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال له: **« لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيم »** •

شبكة العلاقات والجغرافيا

اتاحت لنا دراسة دورة الحضارة بعامة في الفصل السابق ان نستخرج بعض الاعتبارات عن التأثير الاجتماعي للفكرة الدينية مع اخذنا في الاعتبار عنصر الزمن .

ولسوف تتيح لنا دراسة الدورة المسيحية في هدا الفصل ان نرى تأثير الفكرة الدينية حين ترتبط بعنصر المكان بخاصة .

فالفكرة المسيحية لم تتخذ مجالها في نفس الظروف التاريخية التي كانت للفكرة الاسلامية : فلقد ادت هذه في الواقع دورها في مهدها ذاته . فاذا كانت قد استطاعت ان تحقق اهدافها فما ذلك الا لان شبه الجزيرة العربية كانت ارضا عذراء تستطيع اية فكرة دينية جديدة ان تمد فيها جذورها . اما الفكرة المسيحية فهي ، على العكس من ذلك ، وقد ولدت على ارض مزدحمة بالثقافات والاديان القديمة ، فكان من العسير عليها في هذه الظروف ان تجد عناصر اجتماعية حرة كافية كيما تحدث تركيبا جديدا . وقد كانت الثقافة الاغريقية والرومانية والديانة اليهودية تحتل منذ عهد بعيد مجال عملها .

فلكي تجد المسيحية مجالها المناسب كان عليها اذن ان تغادر مهدها ، وهذا هو الذي يفسر لنا كيف ان المسيحية ، وقد ولدت قبل الاسلام بستة قرون ، لم تبدأ مهمتها التاريخية الا بعد الاسلام بستة قرون ، بعيدا عن مسقط رأسها .

وهذه الحالة ترينا ان تأثير فكرة دينية معينة رهن ببعض شروط الجغرافية الانسانية ، فاذا لم تجدها في موطنها هاجرت لتجدها في مكان اخر .

والبوذية ذاتها قد اضطرت الى هجرة مسقط رأسها في الهند ، بحثا عن ظروف اكثر ملاءمة ، هنالك في الصين حيث غرست تعاليمها .

واذن فقد غادرت الفكرة المسيحية ارض مولدها « فلسطين » ، بحثا عن هذه الظروف في اوربا الغربية ، حيث انهت الحضارة الرومانية دورتها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ٠

وبقدر ما كان مجتمع غربي اوربا يتحلل ويتفكك ، وبالمواد المتخلفة عن هذا التحلل ذاتها ، استطاعت المسيحية ان تبني المجتمع الجديد خطـوة خطوة ، وهو المجتمع الذي نطلق عليه في هذه الايام « المجتمع الغربي » ٠

وبدهي ان هذه المواد، بحكم كونها متخلفة عن عملية تحلل ، لم تكـن لتشمل على ادنى رباط عضوي فيما بينها ٠ ولقد خلف اختفاء الامبراطورية الرومانية في الواقع جميع مكونات المجتمع الروماني من اشخاص وافكـار واشياء على حال من الفوضى ، كانت هي السمة الظاهرة لما يطلق عليه اسم « العصور الوسطى » ٠

واذن فلكي تستخدم هذه المواد في بناء جديد ، كان من المحتم تنظيمها بطريقة اخرى ٠ وكانت الفكرة المسيحية هي التي استخرجت النسق الغربي من غضون الفوضى التي اعقبت الحضارة الرومانية ٠

ولقد المح جيزو الى تبيان هذه الحالة ، وهو المؤرخ الذي يظل ــ حتى بعد قرن من الزمن ــ صاحب الكلمة المسموعة بصدد الحضارة الاوربية ، فقد حدثنا جيزو عن : كيف ان تركيب هذه الحضارة كان من عمـل الفـكرة المسيحية ٠ قال :

« تلكم هي السمة العظيمة الاصيلة للحضارة الاوربية ، منذ ان تطورت تحت تأثير الانجيل ، تأثيره الظاهر والخفي ، المنكر او المرضي ، حيث عاش القهر والحرية وكبرا معـا » ٠

فاذا ما ترجمنا حكم هذا المؤرخ ، الى لغة علم الاجتماع كان معناه ان الفكرة المسيحية هي التي صاغت شبكة العلاقات الضرورية التي اتاحـت

للمجتمع الغربي منذ نشأته ان يسجل نشاطه في التاريخ • وهكذا اعطانا جيزو الخيط الموجه الذي يدخلنا الى صميم الموضوع •

فلقد شكلت الفكرة المسيحية (انا) الاوربي او ذاته ، كما صاغت (منظر) اوربا الذي نشهده في منتصف هذا القرن العشرين •

ولا ريب ان الناظر المتطلع سوف يذوب دهشة من وحدة هذا المنظر ، والشخصية التي تعطيه الحياة وتحركه ، فان اوجه التشابه بين الاشخاص والافكار والاشياء هناك تعد في الواقع في منتهى الوضوح • وبرغم هذا فان تلك ظاهرة عامة •

والحق ان تطور الانسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الاحداث الاجتماعية ، تلك التي تطبع حياة الانسان وعمله على وجه البسيطة •

نشرت المجلة العالمية (ديوجين) في عددها الثاني عام ١٩٥٣ مقالا هاما في الموضوع ، بقلم بيير دي فونتين Pierre Desfontaines الذي اعطانا لمحة اخاذة عن « التفسير الديني في الجغرافية الانسانية » •

وقد ارانا الكاتب تحت هذا العنوان كيف ان الانسان لم يستخدم ذكاءه في جهات كفاحه ضد عناصر الطبيعة وحدها ، فهناك على ما ذهب اليه الكاتب : الانسان والغابة ، والانسان والريح ، والانسان والماء ، والانسان والقفر •• الخ •• وهناك ايضا الانسان في مواجهة ذاته ، بل في صراعه مع عناصر هذه الذات ، مع افكارها ، ومع مشاعرها ، وهذا العمل « الروحي » قد طبع ايضا الجغرافية الانسانية ، حين نثر على سطح الارض الواقع الديني ، ونتائجه المرئية في « المنظر » ، لا سيما فيما يتصل بالاعمار ، والاستيطان ، والاستثمار والمواصلات •

ونحن نرى اليوم ايضا في المنظر الاوربي نتائج هذا العمل « الروحي » الذي تم خلال الفي سنة من تاريخ المسيحية •

وما كان لعمل كهذا ان يتم الا بفضل شبكة العلاقات الضرورية لوجود النشاط المشترك في المجتمع الاوربي •

بيد اننا اذا اردنا ان نتتبع اداء هذا العمل خلال القرون ، فكأننا نتتبع اجمالا مجرى تاريخ اوربا كلــه •

وعليه ، فان كتابة تاريخ اوربا ، او وصف عملها « الروحي » هو تعبير عن اطراد واحد بطريقتين مختلفتين : اي اننا اذا ما تحدثنا عن الظاهرة الاوربية او الظاهرة المسيحية ، فان حديثنا سيكون مخلصا لشيء واحد ، لان احداهما متركبة على الاخرى على الخريطة ، وهي تتفق معها في الزمن ، وكلتا الظاهرتين ترجع الى الاخرى ، مهما بدا لنا ان بينهما احيانا تعارضا ظاهريا •

ومع ذلك فان هذا التعارض الظاهري يختفي حين نعود الى الوراء قرنين او ثلاثة قرون ، لان كلمة « اوربي » ذاتها تختفي • اذ الواقع انها لم تدخل في اللغة الدبلوماسية الا منذ الحروب النابليونية ، وعلى وجه التحديد في مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ •

وبرغم هذا فقد كانت هناك « ظاهرة اوربية » منذ العصر الوسيط الاول، ونحن مضطرون الى ان نطلق عليها هذا الوصف لانها متصلة بالمجــــال الجغرافي لاوربــا •

وان كان الواقع مرتبطا بالاطار التاريخي ، اي بالفكرة المسيحية ، او اذا شئنا تعبيرا اخر ، بالعمل الروحي للفكرة المسيحية ، تحت تأثير العامـــل الزمني خلال رحلتها من مسقط رأسها وتأقلمها بأوربا •

فكل حدث يسجله الزمن في ملحمة من ملاحم التاريخ الاوربي هو في الواقع نوع من التجسيد للفكرة المسيحية •

ومن الممكن ان نتتبع النشاط المشترك الذي قام به المجتمع الاوربي ، وان نلاحظ بخاصة بعض جوانب هذا النشاط حتى نخرج منه باللوحــة التالية على سبيل المثال :

الظاهرة الاوروبية:

- نهاية الحضارة الرومانية
- الاقطـاع
- اللاتينية : لغة الكنائس والجامعات
- الحروب الصليبية
- النهضـة
- الاصـلاح
- الاستعمار الذي بدأ منذ اكتشاف اميركا
- ثورة ١٨٤٨ ، التي اثرت على اوربا كلها •

ولو اننا ذهبنا الى ان الحروب الصليبية وثورة ١٨٤٨ هما تجسيد مختلف لفكرة دينية واحدة ، فمن المحتمل ان تتوهم ان في الامر تناقضا ، من حيث كان الحدث الاول ذا دلالة مباشرة على نشاط الفكرة المسيحية ، بينما يترجم الثاني عن نوع من التيار الصادر عن الافكار الاجتماعية واللادينية التي نمت في الثقافة الاوربية ، مع فلسفة لوك Loche ، والعلمانيين الفرنسيين•

فهناك اذن تعارض ظاهر بين ما ينبعث مباشرة عن الفكرة المسيحية وما يأتي عن الافكار اللادينية • والواقع ان هذين الحدثين نتيجة النشاط المشترك لعالم واحد من الاشخاص والافكار والاشياء ، اعني انهما نتاج النشاط المشترك لمجتمع واحد يفكر ويعمل في صف واحد ، بفضل شبكة العلاقات الاجتماعية وحدها •

ومن ناحية اخرى ، لو اننا نظرنا الى احداث اللوحة السابقة منفصلا بعضها عن بعض ، فربما هدمنا بذلك وحدة التاريخ العضوي • بل على العكس من ذلك نرى ان كل حدث منها يجد تفسيره في الاحداث السابقة عليه:

فثورة ١٨٤٨ قد تخلقت بنفس الصورة التي تخلقت بها النهضة او الحروب الصليبية ، اعني انها تمثل نوعا من تجسيد الفكرة المسيحية •

وبصفة عامة ، كل ما ينتسب الى « عالم اشياء » اوربا ، و « عالم افكارها » او « عالم اشخاصها » انما ينتسب بالضرورة الى تكوين الظاهرة

الاوربية ، فهو ذاته ظاهرة اوربية ، اعني انه هو ذاته ناتج عن شبكة العلاقات التي انتجت الحروب الصليبية او ثورة عام ١٨٤٨ •

ولو اننا نظرنا في « عالم اشياء » اوربا مثلا الى جهاز الراديو البسيط ، وحاولنا ان نرسم على الخريطة العلاقات العقلية التي انتهت اليه ، منذ التجارب المتواضعة التي قام بها جلفاني ، حتى اختراع ماركوني ، مارين بهرتز ، بوبوف وبرانلي ، وكثيرين اخرين من مشاهير الرواد ، لانشأ هؤلاء شبكة واحدة •

ولو اننا رسمنا بعد ذلك على الخريطة ذاتها العلاقات التي انتجت « الاصلاح » او النهضة ، فلسوف نجد انفسنا امام نفس الشبكة ، التي تفسر كل ظاهرة اوربية على انها ظاهرة مسيحية •

العلاقات الاجتماعية وعلم النفس

بينا فيما سبق ان الوجود الحقيقي لمجتمع ما يبدأ بتكوين شبكة علاقاته، وحاولنا ان نشرح في اي الظروف والشروط التاريخية تتكون هذه الشبكة، تبعا لوجهات النظر المختلفة باختلاف المدارس الفكرية •

ولقد تناولت هذه المحاولة في التفسير الاشياء في المستوى الاجتماعي، مستوى العدد، ورأينا الدور الذي يؤديه الدين في هذا المستوى حين يتدخل في التركيب الاجتماعي في شكل قيم اخلاقية، متجسدة في العرف، والعادات، والتقاليد، والقواعد الادارية، والمباديء التشريعية، واحيانا تتجسد في اكثر تشكيلات المجتمع ظهورا، كما في طوائف المجتمع الهندي •

ونحاول الان ان نرى في اي الظروف يندمج الفرد في الحياة الاجتماعية• ولئن كانت المشكلة قد صيغت من قبل بلغة الاجتماع، فمن الواجب الان ان نصوغها قصدا بلغة علم النفس والاجتماع، اي اننا ينبغي ان نلجأ بخاصة الى نظرية الفعل **«المنعكس الشرطي»** بحيث نخلع على مصطلح بافلوف تفسيرا اجتماعيا •

ولقد سبق ان قلنا ان المجتمع ليس مجرد عدد من الافراد، وينبغي ان نحدد هنا ان وحدة هذا المجتمع ليست الفرد، ولكنها الفرد المشروط (المكيف) • فان الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله، ليكيفه طبقا لاهدافه الخاصة، وهو المعنى الذي يقصد اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :

« كل مولود يولد على الفطرة • فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » •

فذلك هو التكييف الذي يجعل الفرد اهلا لان يتخذ مكانه ، ولان يقوم بدوره في المجتمع • اي اننا ينبغي اجمالا ان نحدد العلاقة التي يحتمل ان تكون بين مجموعة من الافعال المنعكسة المنظمة لسلوك الفرد ، وبين شبكة العلاقات التي تتيح لمجتمع ما ان يؤدي نشاطه المشترك •

فكما ان الفرد والمجتمع ــ في الظروف العادية ــ يعملان في نفس الاتجاه ، فان هناك تبادلا بين الانعكاس الفردي والعلاقة الاجتماعية • وبفضل هذا التبادل ينبغي ان نتوقع تدخل الواقع الديني في هذا الجانب الجديد من المسألة •

ويجب ان نلاحظ مباشرة تأثير الانعكاس في الحياة الاجتماعية ، اذ نجد ان هذا التأثير يتطور مع عمر المجتمع •

فاذا وجدنا ان ابا ذر الغفاري يسيء الى بلال في لحظة من لحظات السأم ، كان ذلك امارة على ان المجتمع الاسلامي لما يزل جنينا في نفسية المسلم •

ومع ذلك فان ابا ذر الغفاري تعاوده صحوة ضميره ، فينقلب من فوره مرتميا على قدمي بلال يسترضيه ويعتذر اليه •

وعليه، فالفرد يكتسب مجموعة انعكاساته، كما يكتسب المجتمع شبكة علاقاته، والعلاقة وثيقة بين جانبي المسألة: **فهي علاقة كونية تاريخية • اذ ان المجتمع يخلق الانعكاس الفردي ، والانعكاس الفردي يقود تطوره •**

ويمكننا بفضل هذا التبادل ان نتخذ من المرض الاجتماعي دليلا على الفساد في شبكة العلاقات ، او امارة على التحلل في نظام الافعال المنعكسة •

ولقد بينا فيما سبق ، فيما يتصل بالمجتمعات التاريخية المعاصرة ــ بصرف النظر عن المجتمعات التي خرجت من التاريخ ، او التي تحجرت فأصبحنا نطلق عليها « المجتمعات البدائية » ولا نستطيع ان نصدر عليها حكما ما ــ ان اصول هذه المجتمعات تمتد الى اعماق غيب ميتافيزيقي •

فاذا ما صغنا الان المشكلة بلغة علم النفس فسوف تنتهي الى

الملاحظة نفسها من طريق اخرى • فالفرد لكي يدخل في شبكة علاقات اجتماعية معينة ينبغي ان يجسد في ذاته واقعا نفسيا معينا ، وهذا الواقع الذي يعد شرطا لاقرار الفرد وقبوله داخل الحياة الاجتماعية يمد هو ايضا جذوره في اعماق غيب ميتافيزيقي •

لقد قررنا من قبل ان وحدة المجتمع لا تتمثل في الفرد ، ولكن في الفرد المشروط • ولقد عرف علم النفس التجريبي ــ منذ التجارب التي اجراها بافلوف ــ الفعل المنعكس الشرطي ، حين تناول الاشياء من الناحية الوظيفية لا من ناحية التحليل • ونحن نتناولها هنا من الناحية الاجتماعية • **ان ادمجاج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تنحية وهو في الوقت ذاته عملية انتقاء • وتتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية ، اي في حالة المجتمع المنظم ــ بوساطة المدرسة ــ وذلك ما يسمى بالتربية •**

اما اذا كان المجتمع في طريق التكوين فان العملية تبدأ تلقائيا في الظروف النفسية الزمنية التي تتفق مع ما اطلقنا عليه من قبل : « الظرف الاستثنائي » الذي يتوافق مع ظهور المجتمع والحضارة •

فجهاز الافعال المنعكسة لدى رجل كالغزالي قد تكون في المدرسة ، ولكنه لدى صحابي كأبي ذر الغفاري تكون تلقائيا •

فالاطراد النفسي في كلتا الحالين واحد : **اذ يجد الفرد نفسه متخليا عن عدد من الانعكاسات المنافية للنزعة الاجتماعية ، ليكسب مكانها اخرى اكثر توافقا مع الحياة الاجتماعية •**

وذلك هو تكييف الفرد :**فهو عملية تنحية تجعل الفرد لا يعبأ ببعض المثيرات ذات الطابع البدائي (كتلك الحمية التي كانت تعتري عرب الجاهلية وتدفعهم الى الاخذ بالثأر) ، وهو عملية انتقاء او احساس ، تجعل الفرد قابلا لمثيرات ذات طابع اكثر سموا ، طابع اخلاقي او جمالي مثلا •**

وتعد هذه العملية من الوجهة النفسية المحضة عملية بناء للذات او (الانا) او بعبارة اخرى : عملية تحديد لعناصر الشخصية •

ولقد اوضح « يونج » ان كل بناء شخصي يقوم دائما على اساس نفسي عام في مجموع النوع ، ويتمثل في التجارب المتلاحقة التي خاضتها الانسانية منذ عهودها الاولى •

فالفرد على هذا يحمل في نفسه لدى مجيئه الى الدنيا ملخصا لهذه التجارب : **فهو يستقبل عند ولادته ميراثا نفسيا معينا ، كما يستقبل تراثا حيويا • هذا الميراث هو الذي يكون مجال اللاشعور ويمثل رصيد العقائد والخرافات التي كدستها الانسانية في نفسيتها منذ بدء التاريخ •**

والماضي الديني للانسانية في نظر يونج حاضر في نفسية الفرد ، وهو يظهر هنا وهناك في الوان نشاطه النفسي ، ويتجلى في احلامه في هيئة رموز ، او في افكاره في صورة مجازات لا شعورية •

بل ان رجعة التاريخ الديني على هذه الصورة تتجلى ايضا لدى الملحد في صورة مجازات •

وهذه عبارة على سبيل المثال : **« منذ اكثر من ثلاثين عاما طبقت فلسفة تقوم على اساس فكرة ان الحياة الانسانية لا معنى لها ــ على طول الزمن ــ الا ان تكون في خدمة الخلود » (١)**

ولقد يتساءل القاريء عن الصوفي او القديس الذي كتب هذا النص، ومع ذلك فهي فكرة ملحد ارسلها الى صديقه تروتسكي ــ ملحد اخر ــ قبيل اقدامه على الانتحار •

لقد انطلقت العبارة على هذه الصورة من لا شعور الرجل ، كأنه يجدها في رصيد حركاته الفطرية ، ولكن سرعان ما تتدخل جدليته المادية كأنما لتطمس الانعكاس الذي خطه قلمه على الورق ، فاذا به يختتم حديثه قائلا : **« وبالنسبة لنا .. الوحدة هي الخلود »** •

---

(١) هذا النص مقتبس من كتاب « اوربا وروح الشرق » ص ١٩١ ، لوالتر شوبارت الذي قبسه بدوره عن كتاب تروتسكي « حقيقة الحال في روسيا » •

فالرجل قد عاش لحظة حماس ، لم يستطع فيها ان يلتزم فكره المشروط، ولكنه بعد هذه اللحظة لم يرد ان يترك لدى محدثه ـ تروتسكي ـ شكا في تعصبه الماركسي •

ومع ذلك فهذا المثال لا يعطينا صورة كاملة للظاهرة التي نشير اليها ، ولكن يرينا كيف ان الماضي الديني ـ وهو هنا ماض جد قريب ـ يتجلى في صورة انعكاس ، صادر عن فكر ملحد •

فنفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الاقل مفعمة بالنزعة الدينية، تلك التي تعد جزءا من طبيعته ، وهو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الانسان بأنه « حيوان ديني » ، وهو بذلك يحدد جانبا من الاساس النفسي العام في افراد النوع ، وكل فرد يبني شخصيته الخاصة على هذا الاساس •

ومعنى ذلك ان الدين يتدخل ايضا في هذا البناء ، اعني في تحديد العناصر الشخصية للفرد ، او « الانا » •

وهو هنا يتدخل مباشرة في عملية التكييف ، التي عرفناها على انها عملية ترشيح او تنحية من جانب ، وعملية انتقاء او بعث للاحساس من جانب اخر •

ولكي نحدد اهميته الاجتماعية تحديدا دقيقا ينبغي ان نقول بأن العملية هنا عملية تَخالُف من ناحية ، وتَوافُق من ناحية اخرى• فالفرد المشروط او المكيف يختلف عمن ليس كذلك ، وهو من جانب اخر لا بد ان يتفق مع نموذج يحتويه المجتمع الذي يكيفه ليدخل في شبكة علاقاته •

فالاطراد النفسي يفسر بطرق مختلفة • ويذهب يونج الى التمييز بين جانبين في الفرد **القناع** La persona **(١) وما وراء القناع واطلق عليه كلمة الظل** (L'ombre) ، **ويقصد بالقناع الجانب المتجه ناحية المجتمع • ويقصد بالظل الجانب المتجه نحو الطبيعة والفريزة ، اي ونحو ما هو حيوي •**

والظل هو مجال الطاقة الحيوية في حالة البدائية غير المكيفة ، بالنسبة

---

(١) Persona **تعني القناع الذي كان يضعه الممثل اللاتيني في المسرح الروماني ليحاكي الشخصية التي يريد تمثيل دورها .**

للحالة الاجتماعية ، هو مجال الغرائز الناشطة فرديا ، كل غريزة من اجل اشباع ذاتها ، دون اي قانون اخر سوى هذا الاشباع •

والقناع هو المجال الذي تتم فيه عملية تكييف هذه الطاقة الحيوية الخام ، من اجل تحويلها الى طاقة قابلة للاستخدام اجتماعيا •

وهو المجال الذي يصبح فيه الافراد المهذبون المثقفون وسائل في خدمة ضمير ، كما يتم اتصالهم بالحياة عن طريق الضمير، لا عن طريق الغريزة مباشرة•

انها عملية ادماج رئيسية تمنح نشاط الغرائز كل فاعليته الاجتماعية ، حين تضع طاقاتها الحيوية في خدمة الافكار والمباديء •

فالانسان يجب ان يشرب ، ويأكل ، وينسل ، ويملك ، ويكافح من اجل استمرار النوع • ولكنه يجب ان يراقب هذه الاعمال الأولية جميعها ، وان يوجهها لغايات تنفق وتقدم النوع •

وهو بهذه الطريقة يشترك واقعيا في عمل الله عز وجل ، ومع ذلك فهو محكوم ـ اذا ما نظرنا الى الامر من الوجهة الدينية ـ تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني ، اعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الاخلاقي ، فاذا ما حملته طبيعته على العمل فان ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخيا واخلاقيا •

وهكذا يعمل الانسان بداع من طبيعته من اجل الحفاظ على النوع ، وبوحي من ضميره من اجل تقدمه ، فهو اذن مزود بسلطة مزدوجة ، ولكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة ، بحيث يكون عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية •

ومن هذا التركيب ينتج نظام الافعال الاجتماعية المنعكسة . تلك التي تتفق مراحلها مع عمليات البناء الاولية ، والتي قد تكون احيانا ذات طابع مرضي كما في حالة الكبت •

لقد تحدث علماء النفس بافاضة عن هذه العمليات التي تماثل ما اطلقنا عليه من قبل : التنحية والانتقاء ، والتي تحـــــدد في نهاية المطاف السلوك الاجتماعي للفــرد •

ولو اننا تتبعنا مثلا تفسير Z. A. Hodfield ، فسوف ندرك دور الافكار والمباديء في هذه العمليات وهو في الواقع دور العنصر الديني في بناء الاناء وبعض هذه العمليات بنائي ، بمعنى انها تنظيم للغرائز في علاقتها بالتوازن الاساسي داخل الفرد ، وبعضها ــ على العكس ــ مرضي ، لانه يعارض جانبا من الطاقة الحيوية ، اعني حين يكبت جانبا من الغرائز •

فدور العنصر الديني كعامل تنظيم نفسي دور رئيسي، لا من حيث انه يعمل في صورة مباديء موجهة تنطبع في ذاتية « الانا » لتصبح دوافع وقواعد للسلوك ، فحسب ، ولكن لانها تستطيع ان تتجلى في صورة تحريم مانع في بعض الظروف المرضية ، كما في حالة الكبت •

فتأثير الدين على « الانا » هو اذن تأثير عام سواء كان ذلك لتحديد عناصر الشخصية الاساسية ام كان لانه في بعض الحالات الشاذة يؤدي الى نشأة جوانب مرضية ، اذا بدا هذا التأثير في صور يتحلل فيها العنصر الديني او يفسد • على ما ستشير اليه الفقرة التالية •

فالعنصر الديني بصفة عامة ــ فضلا عن انه يغذي الجذور النفسية العامة على ما بينا ــ يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون « الانا » الواعية في الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه « الانــا » •

ولما كانت هذه الطاقة الحيوية المنظمة تتحول الى نشاط اجتماعي لدى الفرد ، وكان هذا النشاط لدى الفرد سببا في وجود النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ ، فان ذلك يرينا بصورة واضحة اهمية دور العنصر الديني ، بطريقتين مختلفتين •

ومن ناحية اخرى فان الالية النفسية ــ اكثر من اي شيء اخر ــ هي التي تولد « الحركة الدائمة » : اذ ان نشاطها يبدأ بعمليات متكررة •

والطاقة الحيوية الصادرة عن الغرائز والمنظمة بفعل التكيف ، والموضوعة

تحت تصرف « الانا » ، هذه الطاقة انما تتصرف فيها الارادة • اي ان الارادة هي التي ستتصرف في توزيع تلك الطاقة الحيوية في مختلف قطاعات النشاط الاجتماعي لدى الفرد ، وبالتالي تتحكم في توزيع النشاط المشترك للجماعة •

فالارادة هي التي تتحكم في هذا التوزيع ، ولكن حركتها الخاصة تخضع هي ذاتها لاطراد نفسي •

ومن هنا تأتي مشكلة توجيه الطاقة الحيوية الخاضعة لتصرف « الانا » •

ولنعد الان الى ماكتبه هدفيلد تفسيرا لهذه المشكلة من بين التفسيرات التي ضمنها بالتحديد كتابه « علم النفس والاخلاق » فهي تفيدنا في هذا المجال ، فهو ينظر الى الاشياء نظرة طبيب ، اعني من جانبها المرضي •

بدأ هدفيلد بالسؤال التالي :

« ما هو المنبه المناسب لتنشيط الارادة » ؟

واستطرد يجيب عن سؤاله بقوله :

« ان المثل الاعلى هو اقوى عامل في تقرير خلق الانسان، وفي تعيين مسلكه، لانه هو وحده الذي يستطيع تنبيه الارادة ، وتنظيم جميع الغرائز » •

فهو هنا يبين لنا ان الطاقة الحيوية الموضوعة تحت تصرف « الانا » هي في نهاية الامر في ظل مراقبة ما اسماه « المثل الاعلى » •

فقد اعلمنا بصورة عارضة ان تنظيم الغرائز الحيوية ليس هو وحده الواقع تحت المراقبة ، وانما يخضع لها ايضا توجيه هذا التنظيم داخل النشاط الاجتماعي للفرد ، وهو ما عبر عنه بقوله: « تقرير خلق الانسان وتعيين مسلكه » •

وعلى ذلك فان مشكلة اختيار المثل الاعلى من اهم المشكلات التي تصادف الفرد في اطاره الخاص لتنظيم « الطاقة الحيوية » ، وفي الاطار الاجتماعي « لتوجيه هذه الطاقة الحيوية » •

وهنا يأتي سؤال أورده هدفيلد على هذه الصورة :

« هل نترك لكل انسان اذن اتباع الطريق الذي يبدو له مؤديا الى المثل الاعلى ؟ ! »

اننا ان فعلنا ذلك فلسوف يجد اللص مثله الاعلى في السرقة ، كما سيجده في عبادة القوة .

وبدهي ان هذه « الحرية » لا تتفق في النهاية ، لا مع مصالح الفرد ، ولا مع مصالح الجماعة .

ومن ناحية اخرى ، لو اننا حرمنا الفرد من حرية الاختيار فسنجعل منه آلة صماء ، او مخلوقا صناعيا ، اكثر من ان يكون كائنا انسانيا يتصرف في طاقته الحيوية لغايات يلمحها ضميره لمحا جليا .

فهناك اذن شرط مزدوج لهذا الاختيار ، بينه هدفيلد حين قال :

« لقد اثبتت التجربة ان اختيار الفرد لمثله الاعلى اهدى طريق الى السعادة » . ولكن هذا الاختيار من ناحية اخرى « اعظم من ان يكون حكما خاصا نتيجة تفكير الفرد » ، فهد فيلد يرى اذن ان هناك « مثلا اعلى موضوعيا » يتفق مع « التقاليد الاخلاقية التي تلخص تجربة الجنس » .

ولما كانت هذه « التقاليد » معبرة عن القيم الاخلاقية ، تلك التي بينا من قبل اهمية العنصر الديني فيها . فان مشكلة توجيه الطاقة الحيوية ترجع بدورها الى مشكلة دينية في جوهرها .

وهكذا يظهر لنا من وجهة نظر علم النفس ان العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الاساسية لدى الفرد ، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف « انا » الفرد ، ثم في توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه « الانا » داخل المجتمع ، وتبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ .

فكرة التربية الاجتماعية

هل يمكن ان نستخرج مما سبق فكرة تربية اجتماعية ، اعني : منهجا يهدي سير مجتمع مـا •• ؟

لقد رأينا ان عجلة المجتمع تدور بفضل شبكة علاقاته ، وان هذا النشاط هو الذي ينشأ عنه تغير صورته •

بيد اننا رأينا نوعا من التعادل بين شبكة العلاقات في مجتمع ما ، ونظام الاستجابة او رد الفعل لدى الفرد المكيف •

فالمشكلة على هذا واحدة ، ولكنها متصورة بمستويين ، او في نطاقين مختلفين : نطاق النفس الانسانية من ناحية ، ونطاق الزمن الاجتماعي مـن ناحيـة اخـرى •

هذا التعادل هو الذي ترجم عنه مؤرخ مثل جيزو بلغته حين قال : ـ على ما ذكرنا سابقا ـ : **((ان مشكلة التاريخ يمكن ان تتصور بطريقتين ، فاما ان نحلها في نفس الفرد ذاته ، ناظرين الى ما يغير ذاته الانسانية ، واما ان نحلها في نطاق ما يحيط به ، ناظرين الى ما يغير اطاره الاجتماعي))** •

فاذا قلنا بأن هناك تربية اجتماعية فان قواعدها العامة ينبغي ان تستقى من علم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس •

ومنهجنا الذي اتبعناه حتى الان يرجع بالتحديد الى التاريخ ، وذلـك لكي نستخرج هذه القواعد في صورتها النظرية والواقعية معا •

هذه القواعد هي ثوابت التاريخ ، تلك التي لا يغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات • ان نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده ، كذلك يخضع بناؤه واعادة هذا البناء لنفس القانـون •

هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بلغة اخرى حين قال : « لا يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به اولها ».

وهو ايضا القانون العام الذي حاولنا تصويره في الرسم البياني السابق، ولعلنا نستطيع الان ادراكه على وجه التحديد .

وربما ادركنا بخاصة معنى « القيم النفسية ـ الزمنية » التي اشرنا اليها ببعض اضلاع الرسم المذكور : فهي تمثل درجة النمو في شبكة العلاقات ، والمستوى الاجتماعي في نظام الافعال المنعكسة في مجتمع معين ، في لحظة معينة من تاريخه .

وكل مرحلة من المراحل الثلاثة في الرسم البياني المذكور يمكن الان ان تستبين في علاقتها بهذين المصطلحين .

فمثلا ، المرحلة « الروحية » **(وهي المرحلة الاولى في الرسم البياني)** يمكن ان تفسر بطريقتين ، تفسر اولا بلغة علم الاجتماع حين نقول : انها تتفق مع شبكة العلاقات الاجتماعية حين تكون في اكثف حالاتها ، لاَ في اكثرها امتدادا ، هذه الكثافة هي ما توحي به عبارة « البنيان المرصوص » في قوله تعالى :

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص » .

ويمكننا ايضا ان نفسر هذه المرحلة بلغة علم النفس حين نقول : انها تتفق مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في احسن ظروفه ، اعني الظروف التي يكون فيها نظام افعاله المنعكسة في اقصى فاعليته الاجتماعية ، وتكون طاقته الحيوية ايضا في اتم حالات تنظيمها .

هذا هو العصر الذهبي بالنسبة لاي مجتمع ، لا من اجل انه يبلغ آنئذ اوج ازدهاره ، وانما لانه يتمتع بميزتين : فقواه جميعا في حركة ، وهذه الحركة دائمة صاعدة .

وهذه هي المرحلة الديناميكية التي يدان فيها كل اتجاه نحو التقاعس او السكون ، وهو ما حدث في تاريخ المجتمع الاسلامي الناشيء في قصة « الثلاثة الذين خلفوا » المشهورة •

اما في المرحلة التالية **(المرحلة الثانية في الرسم البياني)** فان المجتمع يتمتع بشبكة علاقاته الاجتماعية ، حين تكون في اكثر حالاتها سعة وامتدادا ، ولكن حين تكون ايضا بعض الشوائب قد طفت على وجهه ، وبعض النقائص قد برزت في صورته : وهذه ــ مثلا ــ هي الحالة التي كان عليها المجتمع العباسي ، عندما ظهرت مملكة الاغالبة في المغرب ، في افريقية الشمالية ، وحين بدأت النزعة الشعوبية في الظهور في المشرق ، في بلاد فارس •

ومعنى هذا بلغة علم النفس ان نظام الافعال المنعكسة في المجتمع الاسلامي قد تعرض لصدمة (صدمة صفين) ، بحيث لم يعد الفرد المسلم يتصرف في كل طاقته الحيوية ، وهو يباشر وظيفته الاجتماعية ، اعني : ان جانبا من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام افعاله المنعكسة •

وفي هذه المرحلة يواصل المجتمع نموه بفضل السرعة المكتسبة ، ولكن قواه لا تكون جميعها في نطاق الحركة ، وما كان منها في حركة قد لا يكون على الطريق الصاعدة : فهناك جانب من الطاقة مضى الى السكون ، وهو ما يمكن ان نمثل له في التخطيط الاسلامي بحركة المرجئة ، ومضى جانب اخر الى الهاوية ، كحركة القرامطة : فمجموع من الطاقات لم يعد يعمل ، ومجموع اخر يعمل في اتجاه مضاد ، وبعبارة اصح : ضد المثل الاعلى للمجتمع •

وفي المرحلة الثالثة ، تتفكك الغرائز ، فلا تعود تعمل بشكل منسجم متوافق ، ولكن بصورة فردية ، كل منها يعمل لحسابه الخاص • وهنا يختل نظام الطاقة الحيوية ، ويفقد قيمته الاجتماعية حين يهرب من مراقبة نظام الافعال المنعكسة الناشيء عن عملية التكييف •

في هذه المرحلة تسود الفردية تبعا لتحرر الغرائز ، وتتفسخ شبكة

العلاقات الاجتماعية نهائيا : وهو ما يطلق عليه في التاريخ عصر الانحطاط ، كذلك العصر ، الذي هيأ في المجتمع الاسلامي ظروف القابلية للاستعمار ، والاستعمـــار •

وبذلك نرى ان تاريخ مجتمع ما هو تاريخ شبكة علاقات ونظام الافعال المنعكسة لدى نموذجه ، وهو الفرد المكيف •

فكل فكرة عن التربية الاجتماعية يجب ان تصدر من هنا :

انه لكي يمكن التأثير في اسلوب الحياة في مجتمع ما ، وفي سلوك نموذجه الذي يتكون منه ، وبعبارة اخرى : لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي ان تكون لدينا افكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية ، في مستوى الفرد ، وفي مستوى المجتمع •

ولقد حاولنا حتى الان ان نستنبط هذه الافكار بطريق التحليل ، اي بطريقة نظرية • ولكن يحسن في كل عمل من هذا القبيل تحقيق النتائج النظرية التي يسفر عنها التحليل بواسطة اختبار مضاد ، اعني : بواسطة التركيب •

ومع ذلك ، فقد لجأنا خلال بحثنا احيانا الى تأكيد الواقع النظري بواقع التاريخ ، الذي سقناه شاهدا على ما نذهب اليه •

ولربما كان هذا التأكيد غير كاف ، اذا ما علمنا ان الواقـــع التاريخي المقطوع عن سياقه لا يعطي فكرة دقيقة عن نشاط قـــوى التاريخ ، الذي استخلصنا وصفه النظـــري •

ان من الواجب ان نرى هذا النشاط في حيويته ، نراه وهو يمنح الفرد القدرة على التكيف حسبما يعرض له من المواقف ، ثم وهو ينتقل تحت رقابة نظام انعكاساته الى المجتمع الذي يحيله نشاطا مشتركا بفضل شبكة علاقاته •

وخير طريقة نرى بها دليل التاريخ على الاحتمالات النظرية المتعلقـــة

بمجتمع ما ، هي ان نرى التاريخ نفسه في تكونه ، اي ان نتتبع العملية المتصلة بتكوين مجتمع ما ابان ولادته •

فبهذه الطريقة نستطيع ان نشهد دور الدين في حيويته ، وهو يحقق عمله الاجتماعي ، بطريقة غير مباشرة ، او غير اساسية ، حين يهدف الى غاياته الخاصة : فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالايمان بالله ، وهو يخلق بعمله هذا ايضا ـ كما بينا ـ شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع ان يضطلع بمهمته الارضية ، وان يؤدي نشاطه المشترك : وهو بذلك يربط اهداف السماء بضرورات الارض •

فاذا قال الدين قوله سبحانه: **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »** • فان الله عز وجل لم يرد بهذا القانون ان يفصل الناس عن الارض ، ولكن اراد ان يفتح لهم طريقا اعظم خيرا ليضطلعوا بعملهم الارضي •

والتاريخ يرينا مدى القدرة التي امتاز بها اصحاب الدين ، وبخاصة المسلمون ، حين ساروا في هذه الطريق •

بيد اننا نعلم ان اول شيء في هذه الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي يغير سلوك الفرد ، وهذا التغيير النفسي هو الذي يستهل حياة المجتمع ، وهو ايضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي •

أليس ذلك واردا بوضوح في قوله تعالى :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » •

وهكذا نرى ان كل ما يغير النفس ، يغير المجتمع ، ومن المعلوم ان اعظم التغييرات واعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينيـــة •

ولو اننا استطعنا ان نتتبع في دقة عمل الفكرة الدينية ابان ولادتها فربما اصابتنا الدهشة لما نشهد في عملها من جوانب غير متوقعة •

بل وينبغي ايضا ان يمارس المرء بعض التجارب التربوية كيما يفهم التغيرات المثيرة التي يمكن ان تتم في كيان الفرد بهذه الطريقة .

وذلك هو ما يلاحظ عندما يدخل التعليم وسطا بدائيا ، فان الافكار التي يتولى نشرها لا تؤثر في عقلية التلاميذ فحسب ، بل يبرز اثرها على ملامحهم ايضا .

ان الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره ، حين تغير من نفسه ، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد ، اي ان مجموعة من الانعكاسات تؤدي الى خلق صورة جديدة ، كأنها تتمثل في وجه جديد .

اي ان الرأس لها شكل الافكار التي تحملها .

واذا اردنا الاختصار قلنا : ان المجتمع يصوغ نموذجه ، لا من الناحية العقلية فحسب ، بل من الناحية العضوية ايضا .

ولو ان احدا شهد ميلاد المجتمع الاسلامي فلعله ـ فيما اظن ـ كان يشهد موجة التغيير تغمر الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، لا في خصائصهم النفسية فحسب ، بل في سماتهم العضوية ايضا .

ولم يدع لنا التاريخ الاسلامي وثيقة عن التغيير ذي الطابع التجميلي الذي ربما كان قد صحب ميلاد المجتمع الاسلامي ، ولكنه اعطانا وثائق يمكن ان تكون تأكيدا لما سبق ايراده من اعتبارات نظرية ، بحيث تخول لهذه الاعتبارات قيمة تربوية قابلة للتطبيق ، لدى نهضة المجتمع الاسلامي واعادة بنائه .

ومع ذلك فلقد عرفنا في ضوء ما سبق ما هي العناصر التي يمكن ان تكون موضوع تربية اجتماعية ، اذ يجب ان نغير اساسا الصفات النوعية الخاصة بالفرد ، الى صفات اجتماعية تحدد معالم « الشخص » ، اعني تغيير الطاقة الحيوية المنطلقة بواسطة الغرائز الى طاقة اجتماعية خاضعة لمراقبة نظام الانعكاسات المتكونة لدى الفرد بفضل تكييفه .

ومعنى ذلك خلق شبكة العلاقات القادرة على توحيد هذه الطاقات المنطلقة بواسطة الغرائز ، توحيدها في صورة نشاط مشترك ، يقوم به مجتمع ، وظيفته تجميع هذه الطاقات الفردية لمصلحته بفضل هذه الشبكة •

وهذا هو موضوع التربية الاجتماعية بصورة عامة •

ولقد بينا نصيب العنصر الديني في هذا الموضوع ، وهو انه يعمل على تكوين نظام الانعكاسات لدى الفرد المكيف المشروط ، كما يعمل على تكوين شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع ان يؤدي نشاطه المشترك •

فبقدر ما تكون هنالك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر في « ميلاد مجتمع » معين ، يمكن ان تكون هنالك فكرة دقيقة تمام

الدقة عن دورها الذي يمكن ان تؤديه في « نهضة » هذا المجتمع •

وبهذا ندرك معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

« انه لا يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به اولها » بمفهومه الاجتماعي الدقيق •

شبكة العلاقات الاجتماعية والاستعمار

بينا فيما سبق ان شبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تؤمن بقاء المجتمع ، وتحفظ له شخصيته ، وانها هي التي تنظم طاقته الحيوية لتتيح له ان يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ .

وبدهي اننا لا نستطيع ان نفترض ان الاستعمار يجهل اهمية هذه العوامل في بلد مستعمر ، فهو يطبق بصددها سياسة مناسبة .

هذه السياسة تتجلى في الف صورة ، وبحسبنا فيما اعتقد ، ان نضرب لها مثلا بتلك القصة الصغيرة التي حكاها لي ابي الموظف بأحد المراكز جنوب شرقي الجزائر ، حيث كان يعمل في احدى الوظائف المتواضعة ، فقد كان المدير الفرنسي لهذا المركز رجلا عالما(١)، ينظم سلوكه وفقا لما يمليه ضميره، اكثر من ان يكون وفقا لتقديرات الادارة العليا .

وكانت في هذا المركز عائلتان جزائريتان كبيرتان ، ظلتا في شجار دائم، على اثر خلاف نشب بينهما منذ امد بعيد . ولكن المدير الفرنسي افلح في اقرار المصالحة بينهما . ولما كان سعيدا بمأثرته في اقرار السلام بين الاسرتين، فقد حكى قصته امام جمهور كبير لاحد رؤسائه الاداريين ، اثناء التفتيش في المنطقة .

وانحدرت القصة الي من طريق ابي . قال :

لقد استشاط الرئيس الاعلى غضبا ، حتى انه لم يتمالك ان صاح بأعلى صوته قائلا للعالم التائه بين دواليب الادارة الاستعمارية :

---

(١) هو البروفسور ريجاس Reygass المعروف في الميدان العلمي للابحاث المتصلة بعصر ما قبل التاريخ في الشمال الافريقي ، وهو استاذ هذا الكرسي في جامعة الجزائر .

سيدي المدير : اننا لم نرسلك هنا قاضي مصالحات ، لتهدئة المعـارك ، التي قد تفيد احيانا مصلحتنا العليا ..

هذه القصة الصغيرة كافية فيما اعتقد لترينا ان الاستعمار يطبق في سياسته ازاء البلد المستعمر روح الحـكمة القـائلة **« فرق تسد »** .
بيد انه ينبغي ان ندرك ماذا يعني هذا في الاحداث اليومية لهذه السياسة .

ونحن نحمل في كياننا بكل اسف **« النظـارة »** التي تحدد بصـورة شاذة مدى بصرنا في هذا الميدان .

فنحن ندرك جيدا النشاط الاستعماري عندما يكون مرئيا واضحا ، كأنه لعبة اطفال . ولكننا لا ندرك مجال هذا النشاط ولا وسائله منذ اللحظـة التي يصبح فيها دقيقا ... كلعبة الشيطـان .

نحن ندرك مثلا وسائله التي استخدمها لقتل الثورة الجزائرية ، كالدبابة والطائرة ، وقنابل النابالم ... فذلك شيء مرئي واضح ، وهو بهذه الوسائل قد قتل مليونا من الجزائريين ، اعني انه قضى على جانب كبير من الطاقـة الحيوية في بلادنا ، وهذا ايضا شيء مرئي واضح .

ولقد ندرك ايضا نشاط الاستعمار في هذا البلد ، عندما نجح الشعب الجزائري ــ في احدى المراحل الحاسمة من تاريخه ــ في ان يجمع طاقتـه الحيوية كلها لخدمة فكرة معينة ، وتبلورت هذه الطاقة في شبكة علاقات اجتماعية هائلة ، تجلت في اجلى صورها عام ١٩٣٦ ، في المؤتمر الشعبي الجزائـري .

ان الاستعمار هذه المرة لم يخرج فرقه العسكرية لتحطيم الطاقة الحيوية في الشعب الجزائري ، وهدم شبكة علاقاته الاجتماعية . فقد كان بحسبه ان يغتال رجلا واحدا حتى يبث الفوضى والاضطراب ... وقد فعـل !!

ثم انه القى ببعض المال في ضمير احد الزعماء السياسيين . الذين كانت تتجسد فيهم في فترة معينة طاقة البلاد الحيوية ، وفكرة نضالها .

وتكفلت الاحزاب السياسية ببقية العمل ، كل منها يريد ان يرث المؤتمر الشعبي الجزائري ، وان يحول لمصلحته الشخصية شبكة العلاقات الاجتماعية ، التي تمثلت للمرة الاولى على مستوى قومي •

هذا عمل دقيق نوعا ما ، ولكنه ايضا مرئي واضح بقدر كاف •

ان عمل الاستعمار يتلاحق كل يوم في صورة اكثر دقة وخفاء ، بحيث لا يعود في مقدورنا ان ندرك منه شيئا ، فان لنا اوضاعا عقلية تحول بيننا وبين ان نتتبع اللعب حين لا يكون مرئيا او واضحا ، وحين تكون الوسائل المستخدمة في قدر حبات الرمل • ذلك ان حبة رمل واحدة كافية احيانا لايقاف محرك ، اذا ما تسربت الى احد اجهزته • وبعبارة اخرى : **قد تكفي لذعة ابرة في مكان مناسب ليحل الشلل بشبكة العلاقات الاجتماعية في بلد مستعمر ، كما يكفي (لا شيء) لشل الجهاز العصبي في كائن حي احيانا •**

ذلك فن دقيق شبيه بفن زرع اللالىء الذي اتاح لليابان ان تحقق ارقى طرق الزراعة ، زراعة الجواهر •

وانا لندرك جيدا ان الاخصائيين الذين يعملون لحساب الاستعمار اساتذة في ذلك الفن المطبق على الشبكات الاجتماعية ، وعلى الطاقة الحيوية التي يملكها شعب ، مستعمر فعلا ، او مهدد بمؤامرات الاستعمار •

ولا ريب ان الامثلة السابقة ترينا كيف يعمل هؤلاء الفنانون في بلد عربي ، كالجزائر ، لتمزيق شبكة علاقاته السياسية في لحظة معينة ، ولتشتيت طاقته الحيوية المنظمة ، والمتمثلة انذاك في المؤتمر الشعبي •

ولسوف نبين في الفصل الثاني ايضا كيف يستخدم الاستعمار نوعا من القوارض المجازة ، الذين ربوا بعناية في بؤره الثقافية لمهاجمة شبكة العلاقات الثقافية والاخلاقية في بلد معين ، وهم انفسهم الذين يدعون انهم يمثلون ثقافته •

وحسبنا ان ننظر حوالينا لنرى هؤلاء القوارض يعملون في بلادنا، وكيف

انهم مدفوعون دائما الى المسرح بيد خفية ، ولقد يكون مسرحا دوليا ، اعني حيثما وجدت قيم صالحة للقرض يمكن ان تتحول الى لا قيم •

ولا جدوى من القول في كيفية توصل الاستعمار الى هذا الضرب من المخاتلة : فربما لزمنا ان نقول اشياء تبدو لنا غير محتملة ، فاننا بعيدون عن الواقع ••• عن واقعنا •

ولكن لنذكر بعض الامثلة في تحفظ :

لنفترض ان رجلا مشهورا ــ له مواقف واضحة في توجيه الصراع الفكري ، في البلاد العربية هذه الايام ــ يريد ان يبرهن على عطفه تجاه مثقف يشترك في هذا الصراع ، وهذا المثقف يضطر في بعض الظروف الخاصة ان يستريح بعيدا ، في عزلة ضرورية تمليها تلك الظروف •

ولنفترض ان هذا الرجل المشهور منحه اقامة شهر في اي مكان على نفقته الخاصة ، وانه اعطاه من اجل ذلك اذنا مطلقا فيما يتعلق بالنفقات •

هذه حالة تعبر طبعا عن علاقة اجتماعية معينة من الجانبين الاخلاقي والثقافي معا • وهي تهم ايضا من هذين الجانبين مجموعة الفنانين الذين نتحدث عنهم •

ولا حاجة بنا الى القول بأنهم سوف يحاولون جهدهم اولا ان يجعلوا الاقامة كريهة ما امكنهم ، بحيث تفقد جدواها من الناحية النفسية والطبية معا • فنحن هنا نريد ان نظهر الاشياء من زاوية الفاعلية المتوفرة لحبة الرمل فحسب •

كيف سيمضي هؤلاء الفنانون في عملهم •• ؟ •• ان لهم ولا ريب الف طريقة ، ولكن ها هي ذي واحدة من بينها :

ففي نهاية الاقامة يطلب الرجل ان يرى قائمة حسابه قبل مغادرة الفندق•

وهنا يلاحظ ان جانبا من النفقات قد حمل على بند « بار » .. بينما هو لم يضع رجله في بار الفندق مرة واحدة .

وربما كان لدينا من الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن كلمة « بار » هي حبة الرمل الصغيرة المخصصة لتحطيم علاقة ما ، في شبكة الصراع الفكري .

ولا شك ان الموظف المختص قد وضع كلمة « بار » ، حين لم يستطع ان يضع مباشرة كلمة « ويسكي » او « كونياك » ، لان كلتا الكلمتين تلفت النظر اكثر من كلمة « بار » وهو يعلم مقدما ان النزيل سيوقع على القائمة قبل الرحيل .

وطبيعي ان يعتذر الموظف وان يصحح الخطأ ، واضعا مثلا كلمة « كوكا كولا » مكان كلمة « بار » لو ان النزيل اكتشف الامر كما حدث فعلا .

ولكن لنفترض ان هذه الكلمة بقيت في القائمة .. فكيف يمكنه استخدامها كحبة الرمل .. ؟

الامر بكل بساطة هو ان تمضي القائمة الى هدفها ، بطريقة او بأخرى ، حيث يلفت اهتمام رجل الخير الى كلمة « بار » مع ما تيسر من تعليق موجز.

ومن الممكن ان نتخيل حينئذ تأثير هذه الكلمة على مشاعر الرجل الطيب ، لا سيما اذا كان التعليق عليها لبقا .

ولقد يتخذ هؤلاء الفنانون في حالة اخرى ، الموقف نفسه بطريقة مختلفة. اذ ينفخون في ميزانية الاقامة حتى تتورم بمصروفات عديمة الجدوى ، بحيث تضر الضيافة بمن افاد منها ، وبمن اذن بها .

بيد ان المشكلة التي نواجهها في هاتين الحالتين تكمن في اننا لا نكترث بهذه الالاعيب ، لدرجة انها لا تثير اهتمامنا ، على حين تشغل اثارها في خسائرنا الاجتماعية اليومية جانبا كبيرا .

ولسنا نستطيع ، بكل اسف ، وبتأثير اوضاعنا العقلية ، ان نفهم عمل الاستعمار الا ريثما يثير ضجيجا ، كضجيج الدبابة ، والمدفع ، والطائرة .

اما حين يكون من تدبير فنان ، او من عمل قارض فانه يغيب عن وعينا ، لسبب واحد ، هو انه لا يثير ضجيجا .

ولعل اشق الامور على النفس ان خيرة مثقفينا انفسهم ليسوا بكل أسى ، بريئين من هذا النقص ، الذي يعزى ــ فيما اعتقد ــ الى تطور مجتمعنا العام ، مجتمعنا الذي لم يكوّن بعد مقاييسه في هذا المجال ، او هو يصوغها على الاقل طبقا لاصول الاشياء ، لا طبقا لاصول الافكار .

واوضاعنا العقلية التي نلتزمها لا تقعد بنا عن متابعة عمل الاستعمار فحسب ، عمله الذي يمزق به شبكة مجتمعنا ، بل انها تستخدم احيانا كمعطف يختفي تحته استهتارنا وعدم اكتراثنا .

لي صديق اعتده اكثر من اخ ، وهو طبيب كبير ، ويعد واحدا من خيرة مثقفينا الذين اعرفهم بالجزائر .

كنت اتفق معه حين كنا نفكر سويا ، لان افكارنا كانت دائما متماثلة ، ولكني كنت اختلف معه وافترق عنه كلما حتمت الظروف ان نعمل معا .

فتجاربنا تختلف اختلافا كليا ، فحيثما اريد ان اتخذ بعض الاحتياطات في كفاحنا ضد الاستعمار ــ وهي احتياطات تعد من وجهة نظر احد المثقفين الاوربيين مثلا غير كافية ــ اذا بصديقي يراها مفرطة الى درجة الغلو .

حتى ان الاستعمار يجد خير حليف في اوضاعنا العقلية ذاتها .

ولنفترض مثلا انه يريد ان يعطل بعض المشروعات في ادارة معينة ، هنالك يكفيه ان يخلق في اجهزتها فراغا مؤقتا ، اعني صورة مادية لما اطلقنا عليه من قبل « الفراغ الاجتماعي » ، موظف صغير يتغيب في اليوم نفسه ، وهنا يتوقف التنفيذ .

هذا منهج ، ولكن ما يهمنا معرفته هو رد الفعل الصادر عنا ازاء ما يحدث .

ولكي تعرف رد الفعل .. اسأل واحدا من رؤساء هذه الادارة : لماذا توقف التنفيذ ؟ .. ولسوف يجيبك :

ـ لان السيد فلانا .. الموظف المكلف بعمل كذا ـ غائب .

ولو انك قلت لهم :

ـ السيد فلان .. ؟ ! ولكن الموظف باحدى الادارات اذا غاب او مات فان الوظيفة تستمر ، والا حكمتكم تفاهة احد الموظفين .

ولسوف ترى علائم الاستغراب ترتسم في الحال على وجه محدثك ، لانه يجهل ان هذا الموظف الصغير يمكن ان يؤدي بمهارة دور حبة الرمل التي توقف ماكينة بأكملها عن الدوران .

وفي حالة اخرى ، تتحدث مثلاً مع رجل من الطيبين المثقفين تشرح له نقائص المجتمع الاسلامي ، طبقا لمقاييس اهتممت بتمحيصها خلال تجربة طويلة ، اعني انها مستقاة من واقع الاشياء ذاته .

لكن محدثك يقاطعك في لحظة معينة قائلا :

ـ سيدي .. ان افكارك عظيمة ولكن ينبغي ان نعود الى الواقع .

وعندئذ اسأله :

ـ ما هو هذا الواقع .. ارجوك ان تذكره لي .. ؟!

ولسوف تلاحظ ان الرجل يطلق « الواقع » لا على ما يراه مثلك بعينيه ، بل على ما يفكر فيه دون الرجوع لاي مقياس من التاريخ او الاجتماع ، فتكوينه العقلي يمنعه من ان يرى ما هو امام عينيه بلحمه وعظمه ، كما ان هذا التكوين هو الذي يمنع الموظف الكبير في الادارة من ان يدرك الفرق الضروري بين تفاهة الموظف وضرورات الوظيفة .

بيد ان مشكلة الاوضاع العقلية تتصل ، بوجه عام ، بأمن شبكة العلاقات الاجتماعية ، في المجتمع الاسلامي ، في بلد مستعمر او مهدد بمؤامرات الاستعمار .

فهذه الشبكة معرضة لضرباته ، لان المسلمين لم يطبقوا نظاما واقعيا فعالا ضد هذه الضربات ، التي تأتي بوجه خاص من القوارض الذين يعدهم لتحقيق هدفه ، كما تأتي بوجه عام من جميع انواع القوارض ، التي تعمل اسنانها في العلاقات الاجتماعية بالمجتمع الاسلامي .

وبعكس ذلك نرى كيف ان المجتمع السوفييتي دافع عن علاقاته ضد كل القوارض ، حين اتخذ اجراءات جريئة ضد ما اطلق عليه : « المواطنة العالمية COSMOPOLISME » ، كيما يدافع عن وحدته الثقافية ، وضد ما اطلق عليه : « الانحرافية DÉVIATIONNISME » كيما يدافع عن علاقاته الفكرية « الايديولوجية » ، وضد ما اطلق عليه « التروتسكية TROTSKYSME » كيما يدافع عن علاقاته السياسية .

وقد رأينا اخيرا كيف ان خروشوف انذر نوعا من القوارض المنبثين في صفوف الشعب ، واعدا اياهم بارسالهم الى حيث يشمون هواء سيبيريا ، حتى يحول بينهم وبين ان يلتهموا شبكة العلاقات الاخلاقية والثقافية في المجتمع السوفييتي .

فهذا الموقف ازاء مشكلة اجتماعية معينة ، لم تزل بعد وليدة ، جدير ان يلفت انتباهنا من جانبين ، اذ انه يرينا ، في حالة محسة سرعة الادراك الواعي لدى المسؤولين السوفيت ازاء هذه المشكلة التي ما زالت في مهدها ، كما يرينا الاجراءات الرادعة التي ازمعوا اتخاذها منذ البداية ، حتى يعطوا المشكلة حلا فعالا .

ومن المسلم ان هذا الحل لم يخرج عن ان يكون مخططا في صيغة انذار لخروشوف ، الذي يفكر دون شك تفكيرا هادئا في وسائل اكثر فاعلية

من مجرد ارسال القوارض ضد الاجتماعية الى سيبيريا ، اذ ان المشكلة قد طرحت منذئذ على بساط البحث في المجلس السوفييتي الاعلى ، شأنها شأن اية مشكلة ذات اهمية بالغة الخطـورة •

ولكم نتمنى ان يكون لدينا في المجتمع الاسلامي هذا الوعي لمشكلتنا ، وان يطبق عليها الاجراءات التي تناسبها •

هذا واننا لم نفعل في هذا الفصل اكثر من رسمنا الخطوط العامـة للمشكلة ، كيما ندل على وجودها • وبدهي ان طرق الاستعمار شديـدة التنوع في هذا المجال • حيث يقتضيه الامر ان ينشيء في مجتمعنا اعظم قدر من الفراغ الاجتماعي ، مستخدما جميع الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية •

والاستعمار لا يطبق سياسة دون ان يقدر اثارها السلبية التي يمكن ان تنشأ عنها بالنسبة لمصلحته ، وهو في هذا المجال يتخذ الاحتياطات التي يمليها الفن العسكري ، اعني انه عندما يعد خطة هجوم يجب ان يقدر مقدما احتمال الانسحاب ، وهو يقتضي دفاعا عن خطوط الرجعة •

وربما كان احداث تخريب في شبكة العلاقات الاجتماعية في قطاع مـن قطاعات الحياة في بلد ما ، كفيلا باثارة اهتمام الدولة او بعض الافراد ، ففي هذه الحالة يجد الاستعمار في انفسنا ما وضعه للدفاع عن خطته ، فهـو يجده ، في صورة مجموعة من التقاليد ضد الاجتماعية ، تؤثر على ضمـير الشعب الذي يواجه الهجوم ، فهذه التقاليد هي التي تقدم تفسير الهجوم ، بل تمنحه صفة الشرعية • حتى كأنه امر عادي تماما ، فتؤكد انه لا يوجد ثمة هجوم ، وانما مجرد وهم وخيال •

وهكذا يتم تسويه الاحساس النقدي بالمعركة ، وينتهي الموقف بتأثير نوع من التيه العقلي الذي يدعى انه سعة في العقل وتسامح ، ينتهي بالتغاضي عن كل شيء ، وبالتفريط في كل شيء ، لان التقاليد ضد الاجتماعية تشلنا من النواحي العقلية والقانونية والادارية •

ومن الواضح مثلا ان اية رسائل ذات اهمية معينة سياسية او ثقافية، هي بسبب هذا جزء لا يمكن اهماله من شبكة العلاقات الاجتماعية في بلد ما •

وينتج عن هذا ان مثل هذه الرسائل تهم الاستعمار • فلتفترض الان انك ابديت دهشتك ذات يوم ، سواء لان بريدك لم يصل الى من ارسل اليهم ، ام لان اي بريد لم يعد يصلـــك •

اتدهش من ذلك ؟ •• ، هذا امر لا يجوز •• وها هو احدهم يتطـــوع ليشرح لك ان الامور تجري بصورة عادية ، وان غير العادي هو انت !! لانـــك تـــدهش !!

ولسوف يتخذ احد التقاليد ضد الاجتماعية شاهدا على ما يقول ، سيقول لك مثلا : ان شخصية كبيرة معينة لم تتسلم ذات مرة برقية مرسلـــة اليها ، فعادت الى المرسل مع ذكر ان « العنوان مجهول » •

ويقول لك ان الصحافة ذكرت هذا • ولسوف تتذكر فجأة انك قرأته فعلا في احدى الصحف الكبرى ، فلن تجرؤ بعد ذلك على ان تقول شيئا •
وبهذا لا يكونون قد صادروا بريدك فحسب ، بل يكونون قد الغوا في الوقت ذاته احساسك النقدي بتفصيل من تفاصيل الحياة اليومية ، وهو جدير ان يبحث في ضوء اخر ، في نطاق مشروع التخريب الاستعماري •

ففي هذا الضوء الاخر ، وفي هذا النطاق ، يمكن ان يأخذ هذا العمل تفسيرا مختلفا : اذ يمكن ان يحدث عمدا ، بوساطة موظف ضعيف تختفي المؤامره وراء ضعفه ، او يكون هو ذاته شريكا فيها ، وكل هذا من اجـــل خلق تقليد معاد للمجتمع ، اعني اساسا للتفسير يخلع صفة الشرعية على جميع ضروب التخريب المستقبلة •

وفي هذه الحالة ، يتمثل التقليد المعادي للمجتمع في سابقة ، مجـــرد تفصيل يومي ، يرتفع الى مستوى مفتاح للتفسير ، اذ هو يمثل لنا هـــذه

الالاعيب على انها امور عادية كثيرة الوقوع (١) •

وفي حالات اخرى تستخدم اوضاعنا العقلية كمفتاح لهذا التفسير ، فلو فرضنا مثلا ان اجراء عاما لحماية القطن لم ينفذ ، فلسوف يفسرون ذلك بكل بساطة على ان مرده الى « الروتين » ، اعني الى تقليد معاد للمجتمع ، تقليد مستورد ، واسيء استيراده ، اذ ان هذه الكلمة في موطنها تعني من الوجهة الاشتقاقية ان يوضع شيء في « الطريق ROUTE » ، والطريق الاداري العادي يمكن في الواقع ان يشتمل على بعض اشكال البطء ، وهو مع هذا يبقى في نطاق توقيت مقدر وان طال •

اما في بلادنا فقد تغير معنى الكلمة ، فأصبح مرادفا لعبارة « الطريق المسدود » ، اي الوضع الذي تتجمد فيه الحركة الادارية بحيث لا تصبح المسألة مسألة توقيت ، قصير الاجل ، او طويل الاجل •

هذا التقليد المعادي للمجتمع يسبب عجزا اجتماعيا هائلا كل عام ، دون ان يحاول المسؤولون التخلص منه •

فأنت تبدي دهشتك مثلا لاحد الرؤساء الاداريين ، لان اجراء ذا طابع ثقافي ــ قد يهمك شخصيا ــ لم ينفذ منذ خمسة اشهر ، فيرفع الرجل عينيه ويديه الى السماء ويقول لك :

ــ سيدي •• هذا هو الروتين •

ثم يخفض ذراعيه ليدعك مشلولا في عملك الشخصي ، ما دام الاجراء

(١) واجهت انا نفسي ذات يوم هذا الموقف ، حيث وجدتني مضطرا ان اوجه بيانا الى اربع صحف مختلفة راجيا اياها نشره ، لانه يتعلق بالدفاع عن شبكة العلاقات الثقافية ضد التخريب الاستعماري ، ولكن البيان لم ينشر ، ولم يكن امامي سوى فرضين :

١ ــ اذا لم يكن البيان قد وصل الى الصحف فتلك كارثة .

٢ ــ اذا لم تكن الصحف قد ارادت نشره ، فذلك ادهى وامر .

الذي تطلبه متصلا بعمله ، قليلا او كثيرا • ولكنك لا تستطيع ان تقول له ، وبخاصة اذا كان رجلا امينا ذا همة :

ـ لا يا سيدي •• ليس السبب هو الروتين ، ولكنه التخزين ، تخزين العلاقات الاجتماعية في حوزة موظف ، سواء اكان عاجزا وضع قصدا هناك لتجميد الحركة بضعفه وخموده ، ام كان متآمرا يقوم عن عمد بدور السدادة ليوقف الحركة •

والحق اننا لا ندعي ان جميع التقاليد المعادية للمجتمع من عمل الاستعمار ، على الرغم من ان اغلبها من صنعه ، ولكننا نقول بأن جميع التقاليد تخدم عمله الهدام ، وتولد في نشاطنا عجزا اجتماعيا سنويا هائلا •

ومهما يكن امر الوسائل المستخدمة ، فان الهدف المقصود هو دائما ، تحطيم العلاقات الاجتماعية ، ونشر العفونة في الطاقة الحيوية ، بقدر ما يبلغه جهد الاستعمار •

والاستعمار فنان في هذا الميدان ، فهو يعرف كيف يطلق الغرائز ضد الاجتماعية لدى القوارض من كل نوع ، يستخدمها جميعا في هدم شبكة العلاقات الاجتماعية ، التي تتيح لمجتمعنا ان يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ•

دفاعٌ عن شبكةِ العلاقاتِ الاجتماعيَّة

هناك ظروف يشعر فيها الجسم مباشرة ، وبطريقة عضوية بالمعنى الاولي لبعض الاشياء ، التي لا يدرك مغزاها احيانا الفكر نفسه ، بوساطة الطرق التي يتبعها العقل .

وهكذا يمكن ان نتعلم في هذه الظروف المعنى الاولي للحضارة ، وان معنى التحضر : **ان يتعلم (الانسان) كيف يعيش في جماعة ، ويدرك في الوقت ذاته الاهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية ، في تنظيم الحياة الانسانية ، من اجل وظيفتها التاريخية .**

فاذا فهمنا هذا ادركنا في هذه الحالة قيمة نظام الدفاع الذي ينصبه مجتمع بطريقة غريزية حول شبكة علاقاته ، كيما يحميها من اي مساس بها .

فجميع التعاليم المقدسة التي يحيط بها مجتمع ما ــ ولو كان بدائيا ــ حياته الاجتماعية ، هي في الواقع ترجمة ذات اشكال خاصة عن هذا النظام الدفاعي الذي يحوط شبكته ، ولكنها ترجمة ذات حظ متفاوت من التوفيق.

وجميع القوانين التي املتها السماء ، او وضعتها محاولات البشر ، هي في حقيقة الامر اجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية ، وبدونها لا تستطيع الحياة الانسانية ان تستمر ، لا اخلاقيا ، ولا ماديا .

فالوصايا العشر الموحاة الى موسى هي اقوى الصور التي تظهر فيها تلك الارادة العليا التي تحوط وجودنا من كل جانب بشبكة من الحماية الالهية ، وهي تعلمنا ان نعيش مع اهلينا واقربائنا : « امك وابوك ، وقرهما، لا تقتل ، لا تسرق، لا تكذب .. » .

هذا هو اول نظام للدفاع الفعال الذي يحوط شبكة العلاقات الاجتماعية من اجل حمايتها ، في اي مجتمع وليد ، ذلك المجتمع الذي سيحقق

وعد الله لذرية ابراهيم ، ويتم هذا في رسالة النبي العربي ، وفي النشاط المشترك الذي تضطلع به امته ، تلك الامة (**الوسط**) التي يناط بها تحقيق العلاقة بين الانسانية المتحضرة الممثلة في شخص سلمان ، والانسانية العذراء الممثلة في شخص بلال ، وهي العلاقة التي تمد جذورها البعيدة في اعماق تلك الوصية الالهية الاولى : « لا يكن لك من آلهة أمامي » (١) •

ان جميع المباديء الاخلاقية ، دينية كانت او لا دينية انما تنتهي الى هذا الاساس المقدس الذي يرتفع فوقه بناء الانسانية الاخلاقي ، كما انه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك •

بل ان جميع التعاليم المقدسة التي دانت لها الانسانية العذراء وجميع المباديء الاخلاقية التي اتخذتها الانسانية المتحضرة ليست الا تطبيقا متنوعا لتعاليم اخلاقية مشتركة ، يختلف التطبيق تبعا لتعاقب ظروف التاريخ الانساني ، والهدف الاساسي لهذه التعاليم هو الدفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ، التي يقوم عليها كل مجتمع ، كيما يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ •

وليست القوانين الحديثة سوى تطبيق لهذه التعاليم في حالات خاصة ، ناشئة عن الحياة ، وعن التجربة الخاصة لمجتمع يؤدي نشاطه المشترك ، في مستوى قومي وعالمي معا • وكل قانون من هذه القوانين ، هو في نهاية الامر ، للاقلال من الاثار المفرقة الطردية ، والاكثار من الاثار الموثقة الجذبية في شبكة العلاقات ، التي تتيح له جميع اوجه النشاط الاجتماعي ، وتشملها جميعا ، ابتداء من اكثرها بساطة ، في المجتمعات العذراء ، الى اشدها تعقيدا ، في المجتمعات التي ارتقت سلم الحضارة صعدا •

والا فماذا يقصد بالاقلال من الاثار المفرقة الطردية، والاكثار من الاثار الموثقة الجذبية في العلاقات المتحققة بين افراد مجتمع معين ، ان لم يكن يقصد بها تعليم هؤلاء الافراد كيف يعيشون معا ، اعني : كيف يتحضرون • لا تسرق •• لا تقتل •• لا تكذب •• ماذا تعني هذه الكلمات •• انها

---

(١) العهد القديم ـ سفر الخروج ـ الاصحاح العشرون .

تعني بلا شك اشياء كثيرة ، ولكن اهم هذه الاشياء هو الاقلال من الاثار الطردية في ميول الافراد الذين يكونون المجتمع .

وكلمات مثل : « تصدق .. احبب اخاك كما تحب نفسك .. احترم الوعد الذي تبذله .. » ماذا يقصد بها . ؟ اشياء كثيرة ولا شك . ولكن اهمها جميعا هو الاكثار من الاثار الجذبية في الميول الجماعية التي توحد الافراد في مجتمع .

وماذا يقصد بهذه التعاليم الاخلاقية ــ التي يستخف بها احيانا اولئك الذين يدعون تحضيرنا ، باطلاق غرائزنا من عقالها ــ سوى انها تضعنا على طريق الحضارة ، وهي تعلمنا فن الحياة مع اقراننا . ؟؟

وبهذا وحده تختلف الثقافة في جوهرها عن العلم .

فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة ، اعني استخدام جميع ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الاشخاص .

وليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة ، اي انه مجرد جهد تبذله عقولنا حين تستخدم في عالم الاشياء .

فالاولى تحركنا وتقحمنا كلية في موضوعها . واما الثاني فانه يقحمنا في مجاله جزئيا .

والاولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الانساني ، والاخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الاشياء .

ومن هنا يتبين لنا ان الذين عملوا على تحرير غرائزنا ، مدعين انهم يحضروننا بعملهم هذا ــ يكشفون تماما عن جهلهم : فهم يعرفون كلمة : حضارة ، وربما كان مصدر تعليمهم هذه الكلمة معجم لغوي ، او صحيفة سيارة . على حين يجهلون تماما ماذا تعني في الواقع .

هؤلاء الاساتذة المتساهلون في الحضارة هم في الواقع شر اعداء

التقدم : انهم قوارض ، يقرضون جوهر الحضارة ذاته ، كما تقرض الفئران كومة من القمح ، لتحيله غير صالح لشيء •

فاذا لزمنا اليوم ان نعد في بلادنا دفاعا من اجل الحضارة ، فمن الواجب ان يكون دفاعا ضد هذه القوارض •

ومن الواجب ان يعد مجتمعنا جائزة كبرى لمن يستطيع ان يكشف عن احسن مبيد للفئران ، دفاعا عن شبكة علاقاته ضد هذه القوارض •

ومع ذلك فليست هذه القوارض وحدها النوع الحيواني الذي يهدم المجتمع ، حين يقرض شبكة علاقاته التي تعينه على اداء نشاطه المشترك ، بل ان هناك نوعين من خيانة المجتمع :

نوع يهدم روحه ، واخر يهدم وسائله •

والخيانة الاولى تخلق الفراغ الاجتماعي حين تهدم المباديء والاخلاق والروح ، وهي الامور التي تبقى للمجتمع التوتر الضروري ، كيما يواصل نشاطه المشترك في التاريخ •

والخيانة الثانية تخلق الفراغ حين توجه جميع الملكات المبدعة وجميع الفضائل الاخلاقية في المجتمع خارج عالم الوقائع والظواهر •

فاحداهما تجهل اوامر السماء ، والاخرى تجهل مقتضيات الارض ، ولكنهما تنتهيان بطرق مختلفة ، واحيانا متعارضة الى نتيجة واحدة هي : الفراغ الاجتماعي ، حيث تغور الروح ، وتغور معها وسائل الحضارة •

وانما تختان الحضارة اذا ما فارق دعاتها سبيلهم التي يسلكونها لاداء نشاطهم المشترك • واتبعوا سبلا وطرائق متخالفة ، تجعل النشاط مستحيلا: فسبل تنسل الى حظيرة التصوف ، واخرى تنحدر الى عالم العجائب الذي هبت منه ريح الف ليلة وليلة ، وثالثة تختار طريق الرقص والفناء بدعوى انها تحضر •

وهنا تأتي الساعة التي يقع فيها حكم الله ، كأنه شاطور على رأس المجتمع : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » •

فمن الواجب اذن ان نواجه مشكلة الدفاع عن شبكة العلاقات ، لا بالنسبة لنوع معين من القوارض الخاصة ، اولئك النواتج المجازون من قبل ثقافة اجنبية أساءوا تمثلها ، ولكن بالنسبة لجميع الانواع التي تخلق بطريقة او بأخرى حالة الفراغ الاجتماعي •

فمبيدات القوارض اذن لا تكفي ، تدلنا على ذلك التجربة اليومية ، فنحن نرى مثلا انه في اللحظة التي تعلن فيها السلطات المختصة في شوارع احدى العواصم العربية لسائقي السيارات الا يستخدموا النفير الا في حالات الضرورة القصوى • في هذه اللحظة بالذات نجد هؤلاء السائقين يلعبون بهذه الالة بصورة غير معقولة •

ذلك واقع صغير ولا شك ، ولكنه عرض من اعراض التبطل وانعدام الفاعلية في دفاعنا عن شبكة علاقاتنا الاجتماعية •

ومن الممكن بداهة ان نكتب في هذا الموضوع كتابا كاملا ولكنه لا يساوي هذا القدر من المشقة •

وعلى ذلك ينبغي ان نتصور المشكلة بوجه عام ، وان نصوغها بلغة التربية الاجتماعية ، فليس الامر ان نتصور حلولا جزئية اثبتت التجربة بعد فوات الاوان عدم جدواها ، وانها ضرب من ضروب العبث والسخرية ، عندما نلاحظ مثلا في مدخل احدى المستشفيات لافتة تدعو الزوار الى احترام راحة المرضى ، على حين نرى مدير المبنى نفسه يربي داخله كلبا ضخما ينبح طول النهار •

هل يجب في هذه الحالة ان نقول للسيد المدير : انه قد نسي ان يضع هذه اللافتة على مكتبه •• ؟ (١)

---

(١) طبيعي اننا لو سألنا هذا المدير عن سلوكه الشاذ ، فلسوف نجد لديه اسبابا لتفسيره . ولكن ليس من شك في ان هذه الاسباب ذاتها هي التي تضطرنا الى ان نجعله بين القوارض التي تهدم المجتمع من حيث تظن انها تخدمه .

اننا لو اتبعنا هذه اللغة فلربما فقدت التربية الاجتماعية اهميتها وكرامتها .

اذ ليس الهدف منها ان نعلم الناس ان يقولوا او يكتبوا اشياء جميلة ، ولكن الهدف ان نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه، اعني . ان نعلمه كيف يتحضر .

فاذا ما تصورنا التربية الاجتماعية في نطاق هذه المصطلحات امكننا ان نلخصها في كلمة واحدة هي : **الثقافة .**

هل هذا يكفي .. ؟ . كلا لان هذه الكلمة ذاتها قد تعرضت للتشويه والابتذال نتيجة الاستعمال السيء ، على ما شرحناه في دراسة سابقة(١) .

فليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع ، على عالم الاشخاص ، وعالم الافكار ، وعالم الاشياء .

وليست هي من انتاج المتعالمين ، وبحار العلوم ، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم ، دون ان يلموا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع ، خيرا كانت ام شرا . او اولئك الذين يعرفون جميع المباديء والتعاليم التي جاءت في الاسلام ، دون ان يستطيعوا تطبيق مبدأ او تعليم واحد لتغيير انفسهم ، او تغيير بيئتهم .

فكل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي : الاشخاص ، والافكار ، والاشياء ، هي حقيقة ميتة .

وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين ، هي كلمة فارغة ، كلمة ميتة ، مدفونة في نوع من المقابر ، نسميه : القاموس .

وكلمة « تربية اجتماعية » تشترك في هذا المصير العام : فهي لا تعني شيئا اذا لم تكن ــ في الواقع وبما تحمل من معنى ــ **وسيلة فعالة لتغيير الانسان، وتعليمه كيف يعيش مع اقرانه ، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الاحسن دائما ، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع ان يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ .**

---

(١) انظر « مشكلة الثقافة » .

وكذلك كلمة « ثقافة » ، ليست سوى كلمة فارغة رنانة لو لم تخلع على « التربية الاجتماعية » المضمون الضروري ، الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيرة .

ومن الواجب ان نفكر مليا في هذه المصطلحات ، لا من طريق الاستعانة بقاموس تمسك به اليد ، ولكن من طريق الاستعانة برأس مستقر بين اليدين .

فليس الامر اذن ان نقول : ان الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي : الاخلاق ، والجمال ، والمنطق العملي ، والصناعة الفنية . ولكن الامر يقتضينا ان نتساءل : كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الانسان الذي لم يتحضر بعد ، في ظروف نفسية زمنية معينة ، او لابقاء الانسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية . وفي مستوى اهداف الانسانية .

اما فيما يتعلق بحالتنا ، اعني بلادنا العربية والاسلامية ، فينبغي ان نفكر في الانسان الذي لم يتحضر بعد ، او الذي خرج من دورة حضارته في ازمة تاريخية معينة ، كيما نحدد ـ بالنسبة اليه ـ شروط الفاعلية التي يمكن ان تقوم على منهج للاخلاق او الجمال مثلا .

اي انه ينبغي ان نحدد من اجل هذا الانسان الشروط الاولية التي تحقق له ما يبتغي من ثقافة .

الشُرُوطُ الأوليَّةُ لِلتربَيةِ الاجتماعيَّة

لمشكلات الانسان طبيعتها الخاصة ، فهي تختلف اختلافا كليا عن مشكلات المادة ، بحيث لا يمكن ان تطبق عليها دائما حلول تستقى براهينها من الخارج .

ولعلم الاجتماع مناهجه الخاصة ، فاذا ما صرفنا النظر عن مناهجه وقعنا احيانا في ذلك النقص ، كمن يداوي بالكي رجلا من خشب . كما يقول المثل الفرنسي .

ويحدث هذا غالبا في البلاد الاسلامية ، حيث الحلول كلها مستعارة من بلاد متحضرة ، اذ لا تحدث عندنا التأثير نفسه الذي لها في اوطانها ، حتى كأنها تفقد فاعليتها في الطريق ، بمجرد انفصالها عن اطارها الاجتماعي .

ومجال المجتمع ليس كمجال الميكانيكا ، وهو لا يرتضي كل الاستعارات، لان اي حل ذي طابع اجتماعي يشتمل تقريبا ودائما على عناصر لا توزن، ولا يمكن تعريفها ، ولا يمكن ان تدخل في صيغة التعريف ، على حين تعد ضمنا جزءا منه لا يستغنى عنه ، عندما تطبق في ظروف عادية ، اي في ظروف البلاد التي نستوردها منها .

وبعبارة ادق ، هذه العناصر جزء من المحيط الاجتماعي ، ـ في الحالة التي يطبق التعريف خارج هذا المحيط ـ تطبق تلقائيا في صورة فكرة يفرضها الوسط على سلوكنا . فان لم توجد يصبح التعريف زائفا تقريبا ، اذ تنقصه بعض الاشياء التي ضاعت حين انفصل عن ظروفه الاصلية .

ولقد سبق ان لفتنا اهتمام القاريء الى هذا الجانب في « مشكلة

الثقافة » ، وبوسعنا ان نزيد من ايضاحه بالقياس على مناهج الكيمياء .
ولنفترض ان بلدا ايا كان عرف للمرة الاولى الصيغة الكيميائية للماء ، وهي التي نعرفها في دراستنا الابتدائية ، حيث تعلمنا ان :

هيدروجين ٢ + اوكسجين ١ = مـاء .

فهذه الصيغة صحيحة من حيث التحليل . ولكن لنفترض ان احدا مـن الناس قبسها هكذا ، ليطبقها في صناعة الماء ، فانه لن يصل الى شيء ، اذ ينقصه عند التطبيق عنصر جوهري هو : المركب ، الذي لم تعبر عنه الصيغة ، ولا يمكن ان تعبر عنه ، لانها من حيث كانت تعبيرا عن علاقات كمية بـين عنصري الايدروجين والاكسيجين ، اللذين يكونان الماء ــ تعد صحيحة على وجه الدقـة .

فهي صحيحة ، ولكنها غير قابلة للتطبيق في يد من لا يجد في ذهنه ما يـكملها .

فجميع انواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نقبسها عن بلاد اخرى ثبتت لها فيها صلاحيتها ، تشبه الصيغة الكيميائية المشار اليها ، هي صحيحة في هذه البلاد على وجه التأكيد ، ولكنها تقتضي عند التطبيق عناصر مكملة لا تأتي معها ، ولا يمكن ان تأتي معها ، من حيث كانت لا يمكن حصرها . ولا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها ، اي لا يمكن فصلها عن « روحها » .

واذن ، فلكي نواجه بطريقة فنية اية مشكلة اجتماعية ، ينبغي الا يقتصر عملنا على اقتراض الحلول التي تأكدت صحتها خارج بلادنا ، اذ ان الصيغة المقتبسة صحيحة بلا ادنى شك ، ولكن في اطارها الاجتماعي ، في محيطها الذي تخلّقَتْ فيه ، في نفحة « الروح » التي تخيلتها .

هل معنى ذلك ان ندين كل اقتباس ؟ ..

ليس اوهن ولا اضعف من ان نرفض الاستنارة بتجارب الاخرين ، والافادة من جهودهم ، ولكن بشرط ان نرد الحل المستعار الى اصـول البلد المستعيرة .

وبعبارة اخرى، **ينبغي ان نهييء في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية .**

تلكم هي مشكلة الشروط الاولية ، وهي مشكلة تثور امامنا لا بالنسبة الى الحلول الجاهزة التي نقبسها من الخارج ، بل بالنسبة لجميع الحلول التي نتصورها لحل ما يواجه مجتمعنا من مشكلات ، في مرحلته التاريخية الراهنة.

ولقد يدهش بعض الناس احيانا في اوساطنا المفكرة ، حيث الفكرة الاصلاحية دائما موضوع الاهتمام ، يدهشون من ان الحلول التي اكدت صلاحيتها من قبل في المجتمع الاسلامي الاول لم تعد لها اليوم فاعليتها.

ولننظر مثلا الى « الزكاة » ، وقد كانت الدعامة التي قام عليها بناء الامبراطورية الاسلامية ، بجميع مؤسساتها الدينية والحربية ، وجميع اداراتها الثقافية ، واعمالها الاجتماعية .

اما الان ، فلقد فقد هذا النظام الاسلامي تقريبا كل فاعليته الاجتماعية. بل لننظر اكثر من ذلك الى فكرة((**اسلام**)) ذاتها ، وهي التي نعرف دويها العميق في ضمير المسلمين الاولين، هذه الفكرة لم يعد لها اليوم الدوي نفسه، وقوة التوجيه لسلوكنا الفردي ، ولاعمالنا ، وافكارنا ، ومشاعرنا ؟ ! .

وبعض المسلمين ــ الذين ما زالوا يحسون بقلوبهم بالمأساة ، ولكن ليس لديهم ما يكفي من الصبر والاناة لدراستها ــ هؤلاء يترجمون دائما عن المأساة قائلين :

((اننا لم نعد مسلمين الا بشهادة الميلاد)) . وانهم ليقرون الحقيقة ولكنهم ربما فعلوا شيئا اكثر فائدة لو انهم لاحظوا ملاحظات اولية في وسطنا .

ومع ذلك فمن السهل ان نقوم ببعض الملاحظات لاشياء كثيرة الوقوع، لنوجه خطانا في الموضوع .

فيمكن ان نلاحظ مثلا التأثير العظيم للحقيقة الاسلامية على الحضور

الذين يشهدون صلاة الجمعة ، وينصتون الى خطبتها عند قدمي المنبر . في المساجـد .

ان كلمات الامام التي تهبط من المنبر على هذا المستمع المنصت تزلـزل كيـانه .

وكثيرا ما رأينا في جوانب المسجد احد المصلين ذائبا في دموعه ، بل لقد نرى الامام نفسه ، وقد خنقته شهقاته وانفعالاته .

ومع ذلك فاذا ما قضى هذا المستمع صلاته ، بقيت « الحقيقة » التي زلزلت كيانه في المسجد ، ولم تتبعه الى الشـارع .

فالمسلم حين يتخطى عتبة المسجد ينتقل اذن من حال الى حال اخرى . وهذا يضطرنا الى ان نسجل ملاحظتنـا : **ان هناك انفصالا بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي ، هناك افتراق بين المبدأ والحياة .**

والمسلم يعيش اليوم هذا الانفصال الذي يمزق شخصه شـطرين : **شطر ينظم سلوكه في المسجد ، وشطر ينظمه في الشارع .**

ان المسلم يخضع لنظام يشبه الى حد كبير « الدش الاسكتلندي » (١) فهو يتعرض لاشد التأثيرات النفسية تعارضا . فاذا ما تخطى عتبة المسجد يوم الجمعة فانه يشعر بدفء في قلبه . ودفء في نفسه . ولكنه بمجرد ان يضع قدمه في الشارع يعاوده البرد فيحتل قلبه ونفسه . انه يسمع عند قدمي المنبر مثلا موعظة في فضائل رمضان ، ولكنه منذ يعود الى بيته يستمع في الراديو الى العرض الاسبوعي لرئيس احدى الدول الاسلامية ، يحـرض خلاله المواطنين في بلاده ان يفطروا رمضان لمواجهة ضرورات البنـاء الاجتماعي ، كأن هذا البناء يمكن ان تقوم قائمته دون اسس اخلاقية ، او كأننا يمكن في اي بلد فصل الجهد الاجتماعي عن القوى الاخلاقية التـي تسانده ، دون هدم هذا الجهد ذاته ، وطبيعي ان هذا مستحيل .

---

(١) هذا التعبير يطلق على تقاليد الاسكتلنديين في استخدام (الدش) ، حيث يصبون منه مـاء ساخنا ، يتبعونه بماء بـارد .

وان التجربة الحالية في الاتحاد السوفياتي لترينا الى اي حد يهتم هذا البلد في تخطيط بنائه الاشتراكي بجميع امكانيات الايمان الشيوعي ، وبجميع القوى الاخلاقية التي يحركها ، فلو فرض ان قال احد القادة الشيوعيين ايـة قولة تضر بوحدة النشاط التي تضم جميع القوى الاخلاقية والمادية في البلد. في عمله المشترك ، اذن لاتهم بالجنون ، وفصل فورا من قيادة الحزب •

وهذا كله يبين لنا ان المسلم لا يستطيع ان يحقق وحدة شخصه في هذه الظـروف •

وتاريخ هذا الانفصال يرجع بلا شك الى عهد جد بعيد ، فقد حـدث اولا بين العنصر الروحي والعنصر السياسي ، بين الدولة والفكرة الدينية • ويمكن ان نؤرخ هذا الانفصال الاول بمعركة صفين ، ولكن اثاره اخـذت تتفشى في العالم الاسلامي كأنها مرض عضال لم يوجد له عـلاج •

واليوم غدا الانفصال بين الروحي والاجتماعي ، واثاره هي ما نلاحظ في سلوك المسلم الحديث في المسجد وفي الشارع •

وبعبارة اخرى : **يجد المسلم « نفسه » في محيط المسجد ، لان المسجد هو الذي ينشيء بالنسبة لضميره الوسط الاولي الذي تكون فيه ، فهو يجد « شخصـه »** •

ولكنه على عتبة المسجد يفقد صلته بهذا الوسط الاولي ، ويجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو « شخصه » وتبعث فيه «الفرد» الخام•

ولكي نعطي لهذه المأساة تعبيرها الحديث الرومانسي نقول : ان المسـلم يعيش اليوم تارة في حالة الدكتور جيكل ، الذي يجسد تفوق الشخص على « **الانا** » ، وتارة في حالة مستر هايد الذي يجسد رذائل الفرد (١) •

---

(١) هذه اشارة الى قصة اوسكار وايلد المشهورة ، وهي قصة عالم طبيب يطبق على نفسه طرقا علمية تنتهي بتحليل ذاته الى شخصيتين : شخصية الوحش المجرم في شخص مستر هايد ، وشخصية العالم الفاضل في الدكتور جيكـل .

فالمجتمع مضطر ان يستعير من الطبيعة ، اعني من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لاداء نشاطه المشترك في التاريخ •

ولكن الطاقة الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها ، اعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا ، تعيد تنظيم هذه الطاقة ، وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الاول ـ حيث تشترك في حفظ النوع ـ الى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الانسان ، حين يسهم في النشاط المشترك لمجتمع مـا •

فالمشكلة التي نواجهها هنا اذن ذات جانبين: **جانب اجتماعي وجانب نفسي•** وقد ارتنا اوجه التعارض السالفة انه لكي نعالجها من كلا جانبيها يجب ان تكون لدينا « **فكرة** » عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي ، وتجري من جديد تركيب الشخص المسلم بحيث يتماثل مع ذاته ، في المسجد وفي الشارع •

ولقد اكدت الفكرة الاسلامية فيما مضى صلاحيتها في بناء مجتمـــع استطاع ان يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق •

لقد اخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق ، فجعلت منه انسانا متحضرا ، ومحضرا • والامثلة كثيرة على ان هذه الفكرة اظهرت فاعليتها الكاملة في اعادة تنظيم وتوجيه الطاقة الحيوية التي اسلمتها شبه الجزيرة العربية الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام •

فعندما كان النبي مشغولا في المدينة بالمطالب المادية للدولة الاسلامية الفتية ، من اجل مواجهة ضرورات الحرب ، التي ستبدأ بمعركة بدر ـــ كـــان صحابته يقدمون له عن طيب خاطر جزءا من اموالهم ، ويعقب سيد بن عبادة على عمله بتلك الكلمة المعبـــرة :

« يا رسول الله : خذ من اموالنا ما شئت ، وما اخذته منها احب الينـــا مما تركت » •

هذا مثال يرينا كيف ان الطاقة الحيوية في صورة غريزة التملك المطبوعة

في الانسان ، تتحول الى طاقة محكومة ، منظمة ، موجهة نحو المهـــام الاجتمــاعية .

وايا ما كان الامر فان عملية اعادة التنظيم والتوجيه ينبغي ان تكون المهمة الاولى في خطة النهضة الاسلامية ، لان تحقيقها هو الذي يوجد الشرط الاول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة الى جهود فعالة .

وقد تم هذا العمـــل في المجتمع الاسلامي الاول بفضل رعاية الفكـــرة القرآنية ، لا على انها مفاهيم تدرس وتعلم على يد فقـــهاء في الشريعة ، **ولكن على انها ((حقيقة)) عاملة مؤثرة ، تجمع في نظامها مباشرة كل ما يقوم به الفرد من اعمال واشارات ، على ما جاء في حديث ابن عمر وحديث جنـــدب رضي الله عنهما : ((لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الايمان قبل القرآن ، فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها ، وآمرها وزاجرها ، وما ينبغي ان يقف عنده منها)) .**

وقد خططنا في فصل سابق عملية اعادة تنظيم الطاقة الحيوية من الناحية النظرية .

ويمكن ان نزيد في ايضاحها هنا من حيث هي عمل فكرة ((الاسلام)) ذاتها في الوسط المسلم ، ونريد ان نبين كيف يتم تكييف الفكرة الدينية للطاقة الحيوية ، واخضاعها لنظامها . ولذا يتعين علينا اللجوء الى لغة التحليل النفسي بغية تتبع اطراد الحضارة ، باعتباره صورة زمنية للافعال وردود الافعال المتبادلة ، والتي تتولد منذ بداية هذا الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تثير فيه الحركة والنشاط .

فعندما نعتبر الفرد عند نقطة الصفر في الصورة التخطيطية التي قدمناها، نجده في الحالة التي يطلق عليها بعض المؤرخين المسلمين كلمة : **((الفطرة))** اي مع جميع غرائزه كما وهبته اياها الطبيعة ، فالفرد في هذه الحالة ليس في اساسه الا **((الانسان الطبيعي))** .

غير ان الفكرة الدينية سوف تتولى اخضاع غرائزه لعملية تكييف تمثل ما يعرف في علم النفس (الفرويدي) بـ « الكبت » • وليس من شأن هذه العملية القضاء على الغرائز ، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية ، فالحيوية الحيوانية الممثلة في الغرائز بصورة محسة لم تلغ ، ولكنها خضعت لقواعد نظام معين •

في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في ذاته ، ويخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي اوجدتها الفكرة الدينية في نفسه ، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة طبقا لقانون الروح •

وهذا القانون بعينه هو الذي كان يحكم بلالا تحت سياط العذاب ، فيرفع سبابته وهو يقول : « احد ! احد ! » • ومن الواضح ان هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة ، فصوت الغريزة قد صمت ، ولكنه لا يمكن ان يكون قد الغي بوساطة التعذيب ، كما انها لا تمثل نداء العقل فالالم لا يتعقل الامور•

انها صيحة الروح تحررت من اسار الغرائز بعد ما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيا في ذات « بلال بن رباح » •

كذلك كان المجتمع الاسلامي يحكمه هذا التغير ذاته ، اذ كان شأنه شأن « بلال » ، لا يتحدث بلغة اللحم والدم ، كما ان صوت العقل كان لا يزال صامتا في المجتمع الوليد • فكل لغة هذا العصر كانت روحية المنطق ، اذ هي بنت الروح اولا وقبل كل شيء •

ذلكم هو الطور الاول من اطوار حضارة معينة ، الطور الذي تروض فيه الغرائز وتسلك في نظام خاص يكبح جماحها ، ويقيد انطلاقها •

الروح في صوت بلال هي التي تتكلم ، وتتحدى بلغتها اللحم والدم ، وكأنما كان يتحدى هو ايضا بسبابته المرفوعة طبيعة البشر ، ويرفع بها في لحظة معينة مصير الدين الجديد •

والروح ايضا هي التي كانت تتحدث بصوت « الزانية » حين اقبلت

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعلن عن خطيئتها ، وتطلب اقامة حد الزنا عليها • فهذه الوقائع جميعها تخرج عن معايير الطبيعة ، وتدل على ان الغريزة قد كبتت ، غير انها ظلت محتفظة بنزوعها الى التحرير • وهنا ينشب الصراع المحتدم بين هذا النزوع وسيطرة الروح •

وفي الوقت نفسه يواصل المجتمع ، ربيب الفكرة الدينية ، طريق تطوره ، وتكتمل شبكة علاقاته الداخلية ، بقدر امتداد اشعاع هذه الفكرة في العالم ، فتنشأ المشكلات المادية لهذا المجتمع الوليد ، نتيجة توسعه ، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله •

وحتى تتفق تلك الحضارة مع المقاييس المستجدة تسلك منعطفا جديدا ، يتطابق مع « النهضة » ، كما نراها بالنسبة الى الدورة الاوربية ، ومع استيلاء الامويين على الخلافة بالنسبة للدورة الاسلامية •

وفي كلتا الحالين فان المنعطف هو منعطف العقل • غير ان هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز ، وحينئذ تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالتدريج على الصورة التي عرفناها عن عهد بني أمية ، اذ اخذت الروح تفقد نفوذها ، كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد •

وطبيعي الا تنطلق الغرائز دفعة واحدة ، وانما تحرر بقدر ما يضعف سلطان الروح •

وكلما واصل التاريخ سيره ، وأصل التطور عمله في نفسية الفرد ، وفي البناء الاخلاقي للمجتمع ، الذي يكف عن تعديل سلوك الافراد • وبقدر ما تتحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع ، ينكمش التحرز الاخلاقي في افعال الفرد الخاصة شيئا فشيئا •

ولو استطعنا حينئذ مراقبة هذه الظروف النفسية بوسيلة دقيقة ، بغية تتبع نتائجها — كما هو الشأن في معامل الطبيعة — لامكننا ان نلاحظ انخفاضا في مستوى اخلاق المجتمع •

وبعبارة أخرى : **نلاحظ نقصا في الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية ، وان هذه الفكرة تتناقص دائما ، منذ ان دخلت الحضارة منعطف العقل .**

فأوج الحضارة ، واعني به ازدهار العلوم والفنون فيها ، يلتقي من وجهة نظر « علم العلل ETHIOLOGIE » مع بدء مرض اجتماعي معين لما يلفت انتباه المؤرخين وعلماء الاجتماع ، لان اثارها المجسة لا تزال بعيدة ، وبهذا تواصل الغريزة ــ المكبوحة الجماح بيد الفكرة الدينية ــ سعيها الى الانطلاق والتحرر ، وتستعيد الطبيعة سيطرتها على الفرد ، وعلى المجتمع ، شيئا فشيئا .

فاذا ما بلغ هذا التحرر تمامه ، عادت الغرائز الى سيطرتها على مصير الانسان ، **وبدأ الطور الثالث من اطوار الحضارة ، بظهور الغريزة التي تسفر عن وجهها تماما** . وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية ، وتعود الاشياء كما كانت في مجتمع منحل ، ضرب نهائيا في ليل التاريخ ، وبذلك تتم دورة في الحضارة .

هذه الدورة الكاملة تضيء لنا جميع المراحل التي تمر بها الطاقة الحيوية خلال حضارة ، ولكنها تضيء بخاصة المرحلة الاولى ، عندما تخضع خضوعا تاما لنظام فكرة دينية .

وهي ترينا في اي الظروف تتم عملية التنظيم لتلك الطاقة الحيوية ، في ظل سيطرة الفكرة الدينية . وهذه النظرة اساسية في اي مشروع يستهدف اعادة تنظيم الطاقة ، بغية اعادة بناء شبكة علاقات معينة .

فاعادة التنظيم تستلزم الظروف نفسها ، اعني فكرة دينية جديدة . ولقد برهنت تجربتنا اليومية على امرين :

١ ــ ان الفكرة الاسلامية لم يعد لها في سلوك الفرد ما كان لها من فاعلية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ ــ وانها تستعيد خلقها بصورة تلقائية عند قدمي المنبر ، في محيط المسجد .

ونستخلص من الملاحظة الاولى ان المسلم لا يحتفظ باستقلاله الاخلاقي، ابتداء من اللحظة التي يغادر فيها المسجد ، فهو يسقط تحت سطوة قانون العدد • وبدلا من ان يؤثر على الوسط طبقا لمثله الاعلى ومبادئه ، نجد ان الوسط هو الذي يؤثر عليه ، فيجرده من مثله الاعلى ، ويهدم مبادئه •

ولقد تبرز هذه الملاحظة احيانا بصورة روائية مؤسية ، عندما نجد احد قادة الحركة الاصلاحية في بلد اسلامي • كالشيخ العقبي بالجزائر ، يبذل جهده في دفع حركة كهذه خلال اعوام طويلة ، ثم انه يفقد استقلاله الاخلاقي ليصبح نهائيا حليفا للاستعمار • ويجب ان نضيف ان الفرق ليس كبيرا عندما يصبح الفرد حليفا للقابلية للاستعمار •

والملاحظة الثانية ترينا ان المسلم يعثر على استقلاله الاخلاقي في جو المسجد ، اذ يكون اجتماع اشخاص ، يخلق تأثير الوعظ لديهم الظروف الاولية التي ظهرت فيها الفكرة الاسلامية على عهد المسلمين الاولين • وقد كانت الطاقة الحيوية لدى صحابة النبي عليه السلام في تلك الظروف لا منظمة فحسب ، وانما موجهة لاداء نشاط مشترك ، نعرف تاريخه •

فاذا ما شعر المسلم في عصرنا هذا ، وفي جو المسجد ، بسيطرة الفكرة الاسلامية على غرائزه ، واذا ما وجد نفسه يضل عن هذا الشعور بمجرد خروجه الى الشارع ، فمعنى ذلك انه لا يجد في الحياة الاطار الضروري الذي ينقذ استقلاله الاخلاقي ، حين يوجه طاقته وجهة اغراض حسية ليست مناقضة لمثله الاعلى فحسب ، من الناحية النظرية ، ولكنها تذكره دائما بأنه مدفوع مع غيره من المسلمين في نشاط مشترك يجب ان يحقق عمليا هذا المثل الاعلى المشترك •

ومن الممكن ان نقيس، بالنظر الى الماضي، اهمية هذه الملاحظة حين نسأل انفسنا عما كان يمكن ان يحدث من المسلمين الاولين لو انهم بدلا من ان يدعو الى تحقيق مثلهم الاعلى بالطرق العملية ، اكتفوا بصلاة داخل مسجد

من اجل تحقيقه ؟ •• من المؤكد في هذه الحالة انهم ما كانوا ليغيروا الوسط الجاهلي باحتفاظهم باستقلالهم الاخلاقي في جميع الظروف ، وانما هو الوسط الجاهلي الذي ربما كان قد حولهم الى مشركين •

فالنشاط المشترك هو الذي انقذهم ، وهو الذي انقذ الوسط الجاهلي في الوقت ذاته •

ان المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي تقريبا المشكلة نفسها التي عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله :

« لا يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به اولها »

فنحن بحاجة الى اعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية ، وتوجيهها ، واول ما يصادفنا في هذا السبيل هو انه يجب تنظيم تعليم **« القرآن »** بحيث **« يوحي »** من جديد الى الضمير المسلم **« الحقيقة »** القرآنية ، كما لو كانت جديدة ، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير •

وثاني ما يصادفنا هو انه يجب تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم • فبهذا يستطيع المسلم منذ البداية ان يحتفظ باستقلاله الاخلاقي ، حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الاعلى ومبادئه ، كما انه يستطيع ان يواجه — رغم فقره او ثرائه — مسؤولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الاخلاقية او المادية •

وهو بهذه الطريقة يستطيع ايضا ان ينشيء وسطه الخاص شيئا فشيئا، حين يؤثر على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها الى ما عداها ، كما كانت حياة حفنة الرجال الذي عاشوا حول النبي بمكّة ، ايام الاسلام الاولى •

ومع ذلك فان هذه التأملات لا تنشيء حلا ، ولكنها مجرد خطوة على طريق المشكلة ذات الاهمية الخطيرة بالنسبة لمستقبل العالم الاسلامي •

ولكي نعطي هذه التأملات قيمة عملية يجب ان نعرضها لاختبار الحياة، في صورة اجراءات تربوية فعلية ، في المستوى الاسلامي ، ومن اجل هذا لا بد من الممارسة العملية • ولكي تكون مثمرة يجب ان يتولاها مجمع من المتخصصين ، الخالين من العقد البيروقراطية التي تنتاب الموظف ، ومن « **نظارة** » رجل السياسة ، المحدودة حريته الاخلاقية بأوامر حزبه او جماعته ، ومن اخلاق الفوضويين المغرمين بتملق الرأي العام •

يجب ان نحفظ لكل مشكلة استقلالها بالنسبة الى غيرها ، والا اغرقنا مشكلة العلاقات بين المسلمين في الف مشكلة اخرى ، كمشكلة فلسطين ، او كشمير ، او الجزائر •

وعلى اية حال ، ينبغي على الحكومات الاسلامية ان تعتمد هذا المشروع لبعث المسلمين ، اذ ان كل ما يقوي شبكة العلاقات الاجتماعية في المستوى الاسلامي ، يقويها من باب اولى في المستوى القومي •

هذا دون ان ننسى انه باسم الفكرة السامية يرتضي المواطنون في اي بلد قساوة نظام التقشف الذي يسوي بين الاغنياء والفقراء ، ويعطي لكل انسان حظه ، مع اكبر قدر من الفاعلية ، في ظل الحكمة القائلة :

« **الفرد للمجموع – والمجموع للفرد** »

وهذا ما يعبر عن شبكة العلاقات الاجتماعية في أرقى معانيها ، وفي اقصى فاعليتها •

القاهرة في ⎨ ١٠ من المحرم ١٣٨٢
١٣ من يونيو ١٩٦٢



فهـــرس



سلسلة مشكلات الحضارة ـ مالك بن نبي